رابطة الأخوة الإنسانيين

أسس
التفكير الإنساني

تأليف
محمد قلاوي
و
موسى الموسى

رابطة الاخوة الإنسانيين الأممية

المقدمة

مضى أكثر من ثلاثة أرباع قرن على انتهاء الحرب العالمية الثانية، والتي بشر انتهاؤها ببناء نظام عالمي جديد تسود فيه قيم الخير والسلام والتسامح بين شعوب الأرض. ومضى خمسة وثلاثون سنة منذ أن انتهت الحرب الباردة، التي رسمت بانتهائها في أذهان الناس أن ذلك العالم الذي يسود به السلام المنشود، ويتوقف الصراع بين الدول القوية في العالم للسيطرة عليه. ولكن كل تلك الطموحات والآمال لم تكن إلا سراباً، حيث لم يتوقف الصراع – كما هو الحال في كل فترات التاريخ – بين البشر. بل إن حروباً كبيرة نشبت هنا وهناك، والصراع بين الدول العالمية الكبيرة اليوم لا يهدأ لكي يغلب إحداها الأخرى. فالصين تصارع أمريكا، وأمريكا تصارع الصين، وأمريكا وأوروبا يصارعون روسيا، وروسيا تصارع أمريكا وأوروبا.

إن كل تلك الصراعات ودورة الحروب بين البشر لم تتوقف، رغم كل التقدم العلمي والأخلاقي والفلسفي الذي وصلت إليه البشرية في القرون الأخيرة. ولكن يبدو أن هذا التقدم العلمي والفلسفي أُخذ به ليوظف في صراعات البشر أنفسهم. وتحت دخان تلك الصراعات، جلست دولنا – دول العالم الثالث – وأصبحت مسرحاً تتصارع عليه القوى العالمية وحلفاؤها الإقليميون. فأصبحنا مسرحاً لكل صراع، ونشبت الحروب في بلداننا حرباً تلو حرب، ومأساة وراء مأساة. وأصبح حال دولنا – إن صح أن نسميها دولاً – في الحضيض؛ فلا قرار مستقل، ولا سيادة لنا على أرضنا، ولا استقلال سياسي ننعم به، ولا نقرر أي شيء. بل إن كل تلك القوى المتصارعة هي التي تقرر. وبات الفقر والتفاوت الطبقي والظلم والقتل والتشريد يفتك بشعوبنا نتيجة صراع تلك الدول. وشعوب تلك الدول تنعم بسلامها ونعيمها ورخائها، ونحن نعاني كوابيس الحروب.

إن هذا النظام العالمي الذي نشأ لم يكن به ميزان عدالة يوماً، وربما لن يكون. فمن شعوبنا يُقتل مئات الآلاف والملايين في الحروب الأهلية والصراعات الإقليمية والعالمية، ولا يهتز جفن لهذا النظام العالمي القذر. ولكن إذا مات أوروبي أو أمريكي أو مواطن يحمل جنسية تلك الدول المتقدمة، فإن زلزالاً يصيب هذا النظام العالمي، وتشن حروباً لأجل بضع مئات قُتلوا هنا وهناك من أبناء تلك الدول المتقدمة. أما نحن، فلا قيمة لدمائنا وأرواحنا واقتصادنا وأحلامنا وطموحاتنا. نحن شعوب الطبقة الدنيا، وهم شعوب الطبقة العليا في هذا العالم.

يوجد ذلك التمايز بين بني البشر، وتلعب تلك الدول بمصائرنا كما تشاء. فالعالم مقسم إلى قسمين: قسم الطبقة العليا، أصحاب الدم النبيل، وهم شعوب الدول

المتقدمة، والطبقة المسحوقة التي لا قيمة لحياتها، وهي أدنى وجودياً من أبناء تلك الطبقة العليا، وتمثل هذه الطبقة الدنيا شعوب الدول المتخلفة أو النامية وشعوب العالم الثالث. ولكن هل يقع اللوم على تلك الدول فقط وصراعاتها؟ أم إن شعوب هذه الدول المتخلفة مسؤولة أيضاً عن مآسيها وما يحل بها ، الجواب هو بالتأكيد ان شعوب هذه المنطقة مسؤولة عن ما يحل بها.

الجواب هو بالتأكيد أن شعوب هذه المنطقة مسؤولة عما يحل بها. فالدول الكبرى تستغل العوامل الداخلية التي تؤدي إلى إشعال الحروب، ومن ثم تستغل تلك الحروب. وبالتالي، فإن كل شيء يبدأ وينتهي عند عوامل الصراع الداخلية، كالعقل الديني التكفيري الإرهابي الذي يريد فرض دينه على الكوكب بأكمله، والعقل الطائفي، والعقل العشائري. فكل تلك العوامل هي التي تفكك دولنا وتمهد لكل الصراعات والانقسامات داخل مجتمعنا.

وقد يقول قائل إن العوامل الاقتصادية تلعب دورًا في كل تلك الحروب، ولكن هذا الإشكال غير صحيح من جهة، وصحيح من جهة أخرى؛ فالمصالح الاقتصادية تحكم تحركات الدول الكبرى، ولكنها لا تحكم صراعاتنا التي يغلب عليها الطابع الطائفي أو الديني. وليس ببعيد عنا شبح الحرب الأهلية اللبنانية، والحرب الأهلية السورية التي دمرت سوريا، وحرب العراق، وحرب أفغانستان – الداخلي منها أو مع الدول الخارجية – أو الحروب التي خاضها العرب ضد إسرائيل، أو الصراع السني الشيعي الذي لا ينتهي، أو أطماع إيران وأحلامها التوسعية، أو حرب العراق ضد الكويت، أو حرب الخليج الأولى، أو حرب الخليج الثانية... إلخ. فإن كل ما ذكرته يقودنا إلى نتيجة واحدة: أن هناك عوامل داخلية تؤدي لتلك الحروب، وتقوم الدول العالمية باستغلال تلك العوامل.

ويكاد يكون أهم عامل أيضًا الحكومات الاستبدادية الملكية والقومية التي أُنشئت في منطقتنا العربية بعد ما يسمى زورًا وبهتانًا "الاستقلال". فتلك الحكومات والسلطات الاستبدادية هي التي أنتجت دولًا فاشلة، أوصلت تلك الدول إلى حافة الحروب الأهلية والانقسامات العرقية والدينية والطائفية، والفساد الذي فتك ببنيان تلك الدول. إذ إن تلك الدول العالمية، والنظام العالمي الرديء، والنظام العالمي الرسمي، لم يُرِد ولم يدع تلك الدول تتطور بالطرق الطبيعية، بل إنه عمل على منع التطور الطبيعي في تلك الدول عبر جلب سلطات استبدادية فاسدة وتسليمها مقاليد السلطة، لكي تقوم تلك السلطات الاستبدادية بترسيخ عوامل الصراعات لأجل معلوم، إلى حين أن تفكر تلك الدول بإشعال حرب هنا وحرب هناك.

إذاً، فكل شيء يبدأ من عواملنا الداخلية وينتهي عند تلك العوامل. فلذلك، على كل

النخبة المثقفة العمل بكل طاقاتها لأجل القضاء على تلك العوامل، ونقل شعوب دولنا

إلى ضفة الوعي والتنوير والعلم. ورغم أن هذه المهمة شاقة وتتطلب نفسًا طويلًا، فإنها ليست مستحيلة. ومن هذا المنطلق، قمنا بتأسيس "رابطة الإخوة الإنسانيين"، ووضعنا نصب أعيننا نشر التنوير في بلادنا، والعمل على القضاء على تلك العوامل، ونقل المجتمع من العقل الديني الطائفي العشائري الاستبدادي إلى العقل المدني الديمقراطي العلماني، ونقل المجتمع من العقل الخرافي الاتكالي الكسول إلى العقل العلمي النشيط، ونقل المجتمع من العقل المستهلك إلى العقل المنتج. ولو استطعنا أن نزرع طريقة التفكير تلك في المجتمع، واستطعنا ترسيخ تلك العقول، فإننا نكون قد خطونا الخطوة الأولى لنقضي على كل – أو أغلب – صراعاتنا وحروبنا العبثية في هذه المنطقة البائسة من العالم.

ورغم أن مشكلة تبرز أمامنا، وهي أن القوى العالمية نفسها لا تريد لدولنا التقدم، وبالتالي فسيحاولون – كما فعلوا سابقًا – ضرب كل حركات التنوير، ونشر ودعم العقل الظلامي المتخلف، إلا أن تلك المشكلة سوف نجد لها حلاً أيضًا، ولو اضطررنا ذلك إلى الصدام مع القوى العالمية نفسها. وسوف نسرد كيفية حل تلك المشكلة في صفحات هذا الكتاب.

رغم أن منطقتنا العربية مرت بفترة تنوير قصيرة جدًا في العصر الحديث، ابتدأت مع لحظة اصطدامنا بحقيقة تخلفنا ونشوء حضارة غربية متقدمة، وكان من نبهنا إلى ذلك التخلف مدافع نابليون وجيشه الذي دخل مصر، إلا أن مرحلة التنوير تلك فشلت وتم وأدها. ورغم أنها مرت بفترات صعود وهبوط غير ثابتة، فإنها على الأقل بقيت حية وبها روح من الحياة إلى أواخر السبعينات من القرن الماضي، قبل أن يقرر الغرب التحالف بشكل مطلق مع القوى والتيارات الإسلامية الظلامية من أجل استغلال تلك التيارات لضرب الاتحاد السوفييتي. وتجلى ذلك التحالف بدعم وصول الخميني إلى السلطة في إيران، ودعم حركة الإخوان المسلمين فيما عرف حينها "الصحوة الإسلامية"، والتي كان الأحق أن تسمى "الصحوة الظلامية".

ومع ذلك التحالف، الذي فضل به الغرب مصالحه الضيقة التكتيكية على مصلحة الإنسانية الاستراتيجية المتمثلة في إبعاد وتقليص أسباب الصراع والمعاناة في العالم – والتي يشكل العامل الديني جزءًا كبيرًا وعاملاً كبيرًا يساهم في تلك الصراعات – وبالتالي كان من مصلحة الغرب دعم حركات التنوير ونشر الفكر التنويري والعلمي، إلا أن الغرب فضل الاستثمار في تلك التيارات، مما ساهم في دق آخر مسمار في نعش حركة التنوير والعقل في العالم العربي. وانتعشت الأفكار المتخلفة والظلامية، والتي أول ما انقلبت، ارتدت على الغرب نفسه. فمجاهدي أفغانستان

الذين دعمتهم أمريكا ذات يوم وأنزلتهم منزلة الأبطال المحررين، قاموا بالانقلاب عليها وأعلنوا الحرب على أمريكا. وتجلى لحظة الانقلاب تلك مع ضرب برجي التجارة العالميين، وضرب هيبة وعظمة أمريكا، ونشأت لديهم مشكلة الحركات الجهادية العالمية التي تهدد العالم بأكمله، ونمت وعظم خطر تلك الجماعات خصوصًا مع فتح ساحة العراق أمامهم، مما جعل تلك الحركات تتضخم في مكان – وهو العراق – وتضعف في مكان – وهو أفغانستان. وتجلى أكبر تضخم وخطر لتلك الجماعات في تأسيس "داعش" أو "دولة الإسلام في العراق والشام"، مهددة العالم بحرب طاحنة.

وتجلى انقلاب السحر على الساحر أيضًا في حالة إيران، حيث باتت إيران – التي استثمرت أمريكا بتيارها الديني الشيعي – تشكل مشكلة كبيرة لأمريكا وإسرائيل ودول الخليج. وحتى لحظة كتابة هذه السطور، لا تزال إيران تشكل مشكلة لهم، ولا يعرفون كيفية التخلص من هذه المشكلة.

استمرار التحالف مع الظلام ومسؤولية الداخل

ولكن رغم كل تلك المشاكل التي أفرزها التحالف مع القوى الظلامية في البلدان النامية – ويتصدر تلك التيارات التيار الإسلامي المتطرف – فإنه حتى الآن لا يزال الغرب مصممًا على التحالف مع تلك التيارات، وعلى إفشال أي محاولة وأي حركة لإنشاء دول بها جو من الديمقراطية والحرية. لأنه في اللحظة التي تنتقل بها دولنا إلى تلك الضفة، فإن جزءًا كبيرًا من الامتيازات التي يجنيها سوف يذهب، ولن يستطيع تحصيل المكاسب والثروات من إشعال الحروب هنا وهناك. لذلك، فإن جزءًا كبيرًا من تخلفنا راجع إلى تلك اللحظة من التاريخ التي أراد بها الغرب إنشاء دول فاشلة يحكمها استبداد وتخلف.

ولست ألقي اللوم كله على طمع الغرب فينا وعلى تآمره علينا، إذ إنه ليس منظوري ضيقًا لا يرى إلا تلك المشكلة. بل إنني ألقي باللوم أكثره على عواملنا الداخلية التي أوصلتنا إلى ما وصلنا إليه من جهل وتخلف، وعقل يقبل بالاستبداد ويفرح به ويسبح بحمده ونعمته، ويطبل له ليل نهار.

لذلك، وللقضاء على أنماط التفكير التي تولد تلك المشاكل، أسسنا رابطة الأخوة الإنسانية، وارتأينا في البداية أن نضع كتابًا يوضح منهجنا؛ حيث إن المنهج الذي نعتمده هو التفكير الإنساني الذي يعلو على التفكير الطائفي والديني والعرقي أو المصلحي ذي النطاق الضيق المحدود. فالتفكير الإنساني هو تفكير له مجال واسع يشمل جميع بني البشر، ويؤسس لمصلحة البشرية جمعاء، ويؤدي إلى القضاء على التناقضات التي تعيشها المجتمعات البشرية فيما بينها، والتي تؤدي إلى حروب

ونزاعات وخلافات. وسمينا كتابنا الأول: "أسس التفكير الإنساني"، ونرجو أن يكون لبنة أولى في طريق الإصلاح والتنوير والسلام العالمي.

كتبه: محمد قلاوي

دمشق 2026/1/13

(نحو عقل تعددي)

العقل التعددي هو عقل يحتوي على مجموعة من الأفكار والمعتقدات التي لا تأخذ صفة الحقائق المطلقة، بل صفة الحقائق النسبية، وبذلك يختلف عن العقل التوحيدي الذي يأخذ أفكاره كحقائق مطلقة. ويتميز العقل التعددي بخاصية التطور وعدم الجمود المطلق، على عكس العقل التوحيدي، وبالتالي فإن الأفكار التي يعتنقها العقل التعددي تخضع دائماً للتطوير والمناقشة. وينعكس هذا التطور في المجتمع نفسه، فأي تطور في الأفكار والمعتقدات يؤدي إلى تطور علمي وفكري، وهذا التطور ينعكس على المجتمع مما يؤدي إلى نهضة علمية وفكرية وإلى مجتمعات متقدمة متطورة. بينما يقود العقل التوحيدي إلى مجتمعات متوقفة عند زمن معين تَقدِّسه ولا تنفك عنه. وبناءً على ذلك، يُعتبر العقل التعددي البذرة الأولى لتطور البشرية والحضارات والبلدان، على عكس العقل التوحيدي الذي يُرى أنه بذرة التخلف والانحطاط.

ومن ذلك يمكن الوصول إلى نتيجة أن العقل التعددي يرفض الإرهاب ولا يقبل به، ويسمح بالحرية والنقد، على عكس العقل التوحيدي. وذلك لأن العقل التعددي يؤمن أن النقد يؤدي إلى التطوير والاكتشافات الجديدة وإلى نشوء فلسفات جديدة تُحدث تطوراً في المجتمع. أما العقل التوحيدي فيرى أن النقد يهدد كيانه لأنه يشعر أن أفكاره ضعيفة، ويخشى من زوال تلك الأفكار والمعتقدات عند أي نقد. ولا يهم العقل التوحيدي المجتمع بقدر ما تهمه المعتقدات نفسها التي هي الغاية وليست الوسيلة. بينما يعتقد العقل التعددي أن الأفكار والمعتقدات ليست غاية في حد ذاتها، بل وسيلة لتطور المجتمعات، وبالتالي يجب أن تخضع للنقد، مما يسمح بالحرية وعرض الآراء المضادة. ولا يخشى العقل التعددي على بنيتها؛ لأن النقد حتى وإن أظهر ضعفاً فيها فإنه سيقويها، وهذا ناتج عن كونه لا يعتبرها غايات في ذاتها. على عكس العقل التوحيدي الذي يخشى ظهور ضعف بنيوي في معتقداته قد يضرب قدسيتها في المجتمع ويفتح الباب لاعتناق أفكار مضادة يُعتقد أنها قد تقود إلى التقدم. فالعقل التوحيدي لا يهمه تقدم المجتمع، بل الغاية هي الأفكار والمعتقدات

بحد ذاتها، لذلك يتميز بالدوغمائية، وقد يلجأ إلى الإرهاب والقتل والتخويف لكل من ينقض أفكاره.

وحين يسمح العقل التعددي بالنقد والحرية الفكرية والتسامح الفكري، ويسمح بتداول الأفكار والمعتقدات المضادة للوصول إلى أفضل الأفكار التي تؤدي إلى تقدم المجتمع، فإنه يصبح عقلاً مبدعاً مبتكراً لا يقف عند القديم بل يطمح للجديد، ويسعى دائماً للإبداع والابتكار وتطوير المجتمع وتحسين الأساليب والحياة والقوانين والأفكار والعلم. وهو لا يقدس زمناً ولا أشخاصاً ولا أفكاراً. وبالتالي، فإن المجتمعات التي تعتنق العقل التعددي تتطور بشكل دائم وهي التي تقدم للعالم الاختراعات والاكتشافات والابتكارات. على عكس المجتمعات التي تعتنق العقل التوحيدي التي لا تقدم للعالم شيئاً ولا تخترع ولا تبتكر ولا تكتشف، بل جل ما تقوم به هو الاستهلاك وتقديس ذاتها وعقلها الذي لم ينتج شيئاً يذكر. فالعقل التعددي لا يقدس الأشخاص ولا المراحل الزمنية، على عكس العقل التوحيدي الذي يقدس السلف والمراحل التي عاش فيها. وفي العقل التعددي لا يوجد سلف مبارك ولا أشخاص مقدسون ولا كتب مقدسة، فكل شيء قابل للنقد والتطوير والإبداع.

ومن سمات العقل التعددي أيضاً أنه يقبل النتاج العلمي والفكري لأي مجتمع متقدم، على عكس العقل التوحيدي الذي يرفض الحداثة والتطور والتقدم تحت عناوين فضفاضة كالأصالة والمعاصرة. فالعقل التعددي إذا وجد مجتمعاً متقدماً يأخذ بأفكاره ومعتقداته وتقنياته، ويأخذ العقل الذي أدى إلى تلك التقنيات. بينما العقل التوحيدي يأخذ التقنية فقط من دون العقل الذي أنتجها، وينشئ فلسفات لرفض العلم والحداثة بدافع الغرور والنرجسية، ويرى أنه يجب أن يُقلِّد لا أن يُقلِّد. وهذا يؤدي بالمجتمعات التي تعتنق العقل التوحيدي إلى أن تبقى تابعة للحضارة وتسير مع التاريخ، بينما تقدم المجتمعات التعددية.

وينعكس العقل التعددي أيضاً على الحياة السياسية للمجتمعات، فهو البذرة الأولى للديمقراطية، فهو يقبل بالديمقراطية ويأخذ بها، ويرفض فكرة الحزب الواحد والقائد الواحد والأفكار الواحدة والإيديولوجيا الواحدة. وبالتالي لا تنشأ في المجتمعات التي تأخذ به الآفات التي تنشأ في المجتمعات الديكتاتورية، بل تستفيد من ثمار الديمقراطية في رحلتها التطورية.

حين نتأمل التاريخ، نجد أن الدول قد ضعفت وانهارت حين سيطر عليها العقل التوحيدي. فنحن نجد على سبيل المثال أن الحضارة الإسلامية ازدهرت وعاشت

أفضل أيامها عندما كان يسود جوٌّ من الحرية الفكرية ناتجٌ عن عقل تعددي، أو عقل

تَعدُّدي جزئي، ساد فيها؛ حيث تقبَّلت جميع التيارات المختلفة ولم تمارس إرهابًا أو قمعًا فكريًا، بل كانت تتقبل الجميع بصدر رحب. ففي العصر العباسي، على سبيل المثال، نشأت تيارات فكرية مختلفة في بلاد المسلمين كافة: كان هناك المعتزلة والأشاعرة والماتريدية، كما وُجد الملاحدة والزنادقة والشعراء والماجنون، إلى جانب أديان وطوائف أخرى. وقد ساهم هذا التنوع في نهضة فكرية وأنجب فلاسفة ومفكرين وعلماء. لم يكن هناك عقل توحيدي يسيطر على المجتمع ويريد فرض رؤية أحادية في الدين والعلم والفكر، بل كان العقل التعددي هو السائد حينها، مما أدى إلى حركة نهضة كبيرة في الحضارة الإسلامية، تمثلت في حركة الترجمة وتطوير الفلسفة اليونانية وتطوير العلوم كالرياضيات. فرأينا ابن سينا والفارابي وجابر بن حيان والكندي والخوارزمي وابن الراوندي، فرأينا تطورًا كبيرًا في حقول الدين والفلسفة والمعرفة.

أما بعد أن ذهب وولى ذلك الزمان، وسيطر العقل التوحيدي على المجتمع، فحُرم الاجتهاد وقُدِّس التقليد وحُرمت الفلسفة، وساد التكفير والقمع الفكري وقمع الحريات، رأينا حينها أن المجتمع الإسلامي بدأ يدخل في الظلمات شيئًا فشيئًا حتى دخل في عصر الانحطاط ولم يخرج منه إلى يومنا هذا.

وكذلك في أوروبا، رأينا حين كانت الحضارة اليونانية سائدة وكانت الفلسفة اليونانية تسيطر على التفكير، كان العقل التعددي سائدًا؛ حيث كان هناك مناخ للحرية الفكرية والتفكير وللعقائد المتضاربة وللأفكار المتطالبة وللفلسفات المتصارعة، مما أدى إلى نهضة فلسفية وفكرية وعلمية ورياضية أدت إلى تطور المجتمع. وحين ساد العقل التوحيدي بعد أن اعتنقت الإمبراطورية الرومانية المسيحية وأرادت فرض رؤية واحدة في العلم والفلسفة والفكر والحياة، رأينا أوروبا تدخل في عصر الظلام (العصور الوسطى المظلمة) ولم تخرج منه إلا في عصر النهضة، بعد قرون، على أيدي رجال عصر النهضة ثم رجال عصر التنوير، فدخلت أوروبا مرحلة الحداثة وما بعد الحداثة.

ولو نظرنا إلى بعض البلدان التي اعتنقت فلسفات سياسية تتسم بالعقل التوحيدي، لرأينا أن تلك الكيانات السياسية الناتجة عن هذا العقل قد فشلت أيضًا؛ حيث رأينا الاتحاد السوفيتي في مراحله المتوسطة والمتأخرة، حين تبنى العقل التوحيدي وأراد فرض رؤية جامدة أحادية لا تقبل النقاش أو النقد أو التطوير، وكأنها كاملة مكتملة،

رأينا حينها كيف تسارع الاتحاد السوفيتي في السير نحو نهايته وكيف انهار في عام 1991. ورأينا كذلك الأيديولوجيا النازية في ألمانيا، حين أرادت فرض رؤيتها على العالم بأسره نتيجة انعكاس العقل التوحيدي في الفكر النازي، رأينا كيف انهار هذا الفكر وانهار الكيان السياسي الذي أسسه.

لذلك نجد أن التاريخ يؤيد ما قلناه بأن العقل التعددي هو الأساس، وهو الذي يجب أن يسود، وهو الذي يجب أن تعتنقه المجتمعات إذا ما أرادت أن تتطور وتتقدم وتخرج من تخلفها ومن عصر الظلمات إلى عصر النور. وكما قلنا، فتاريخ أوروبا خير مثال. ولكن للأسف، حتى الآن نجد مجتمعاتنا تتمسك بالعقل التوحيدي وتدافع عنه بشراسة كبيرة، مع أنها تعيش واقعًا مُزريًا على كافة الأصعدة. وللأسف، حتى الآن لا نعرف كيف نحل هذه المفارقة: كيف أن العقل العربي يعيش انحطاطًا علميًا واقتصاديًا وسياسيًا، ومع ذلك يرفض النقد ويرفض توجيه الاتهام للعقل التوحيدي الذي يسيطر على تفكيره، ويرفض حتى فلسفات الحداثة ويرفض الأخذ بالعقلانية التي أدت للحداثة والتطور العلمي. وهذا في الحقيقة شيء مستغرب جدًا في العقل العربي.

إن للعقل التعددي لا يعني تبسيط الأمور وأخذها دائماً نحو نسبية مفرطة، إذ إننا نعرف أن بعض الأمور لا يجب أن تؤخذ دائماً بصيغة نسبية، وأن هناك منظوراً موضوعياً في كثير من الأحيان، كمسألة القوانين وتطبيقها؛ فلا يمكن للشخص أن يخرق قانون بلد بحجة نسبية، وبأن هذا الفعل من منظوره أو من منظور دينه أو عقيدته أو قانون بلده الأصلي لا يعتبر جرماً، بل إن عليه احترام قوانين البلاد. ولا يمكن لأي شخص أيضاً أن لا يصدق نظريات علمية هي أصدق ما أثبت في المجال الذي تبحث فيه بحجة نسبية.

ولكننا نسعى إلى أن نضع ميزاناً دقيقاً نضع به الأشياء التي يجب أن لا تُعامل بصحة مطلقة، أو يجب أن تُعامل بنسبية، ولكن ذلك يجب أن يكون ضمن إطار صحيح وضمن نظرية معرفية صحيحة متسقة مع نفسها، لا أن تكون دوغمائية وبربرية، وبتعصب أحمق لدين أو طائفة أو علوم زائفة. لذلك سوف نوضح هذا الميزان.

ولكن يجب أن نؤكد أن الدين والسياسة والأخلاق والفلسفة هي أمور نسبية متغيرة، يجب ألا تُعامل بصفتها أشياء تأخذ صفة الإطلاق؛ وذلك لأن كلاً من الدين والسياسة والقوانين والفلسفة تتعامل وتنطلق من المجتمع نفسه، وتعيده وتعود إلى المجتمع، إلى معيشة الناس، وإلى تنظيم المجتمعات لكي تعيش تلك المجتمعات بأفضل صيغة ممكنة. وبما أن المجتمعات من الناحية الشكلية ومن الناحية

المضمونية متغيرة، فإن أي شيء سيطبق عليها أو سينظمها سوف يخضع للتغيير تلقائياً، وبالتالي نجد أن الدين والأخلاق والفلسفة يجب أن تتغير إذا كانت وظيفتها تنظيم حياة المجتمع.

لنأخذ النص الديني او النصوص الثانوية على سبيل المثال ونخضعها للتحليل لكي مثبتة وجهة نظرنا

ن اي نص كان هو وليد فهم معين او أنزل لكي يتسق مع فهم معين فالنصوص والاجتهادات البشرية هي وليدة أفهام معينة ولدت في زمان ومكان وثقافة وتأثرت بهما وتكون عقلها تبعا للزمان والمكان والمعطيات المعرفية في ذلك الوقت هذا بالنسبة للفهم البشري أما بالنسبة للنصوص التي تنسب إلى آلهة او إله معين فصحيح انها ربما تصدر من إله كلي الحكمة والقدرة والعلم إلا انها تتنزل وفقا لأفهام متلقيها وبالتالي لا يمكن ان تكون تلك النصوص ان تحتوي على اشياء لا يمكن لعقل البشر تحملها او استيعابها فحينها سيصبح تنزيلها من غير معنى لأنها ستغدوا ببساطة غير مفهومة وغير واضحة وبالتالي فلا فائدة وسيكون تنزيلها نوعا من العبث والاستعراض وبما أن الإله حكيم ومنزه عن العبث فبالتالي سوف تكون تلك النصوص منزلة طبقاً لأفهام وعقول بشرية تتسع لها وبما أن عقول البشر محدودة بإطار الزمان والمكان والثقافة فبالتالي ستكون تلك النصوص محدودة بتلك المفاهيم الثلاثة لكي يستوعبها البشر النازلة عليهم تلك النصوص وإلا اذا كانت خارج تلك المفاهيم او متجاوزة حدود تلك المفاهيم فإنها ستصبح عصية على العقول من ناحية الفهم وبالتالي لن تفهم تلك النصوص وبالتالي لن تطبق وبالتالي سيصبح تنزيلها نوع من العبث او مما لا فائدة منه او استعراض صبياني لمعرفة ما لدى كيان او شخص امام اشخاص تبدوا معارفهم بسيطة امام تلك المعرفة المطلقة وسيكون كمن حاز على درجة الدكتوراة في الفيزياء وراح يشرح لطلاب مبتدئين في تعلم الفيزياء مسائل النسبية العامة والخاصة فعمله هذا سيصنف إما أنه نوع من العبث او استعراض بهلواني لعضلاته المعرفية ولكن ذلك لن يفيد الطلاب في فهم النصوص في شيء. نفس الكلام ينطبق على النصوص المنزلة من عند إله او آلهة فهي لا بد ان تخضع للتجديد لأنها أنزلت لتناسب أفهاما وعقولا معينة هذه العقول صاغها الزمان والمكان والثقافة والحضارة والتطور البشري قد تخطى ذلك الزمان والمكان والثقافة فالبقاء على الفهم القديم لها هي محاولة جر الماضي لحاضر لا يتسق معه .
من هنا يتبين بطلان ان هناك نصوصا مطلقة من ناحية الزمان والمكان اي أنها صالحة للانطباق على كل زمان ومكان فهذا كلام خاطئ حسب ما اوضحته سابقا وبطلان مقولة ان هناك فهماً بشرياً صالحاً لكل زمان ومكان فالأحكام العقلية والاجتهادات البشرية في الأمور النظرية كتأويل النصوص وشرحها خاضعة

للزمان والمكان ومن ثم يظهر ضرورة التجديد فالتجديد هو محاولة لبث فهم جديد للنصوص ولتجديد النصوص نفسها وقد يسأل شخص انه فهمنا ما هو المقصود من تجديد فهم النص ولكن ماذا تقصد بتجديد النص . سوف أجيب عن هذا الإشكال في الأبحاث اللاحقة ولكن قبل ان تنتقل إلى البحث التالي لا بد ان أبين مسألة كيف تتكون النصوص والاجتهادات من الزمان والمكان والثقافة الموجودة إذ قظ يقول شخص أن هذه الدعوى التي ادعيتها لكي تكون صحيحة لا بد ان تثبت اولاً ان النص او الاجتهاد خاضع للزمان والمكان والثقافة ونحن لا نسلم لك بهذه القضية لأن النص النازل من عند إله هو نص مطلق والإله صاغه بطريقة تناسب كل زمان ومكان وثقافة بطريقة معجزة جاعلاً منه يستوعب كل الأزمان والأمكنة والثقافات اللاحقة على تنزيل النص وأيضاً يمكن صياغة اجتهادات بشرية أيضاً من تلك النصوص مطلقة غير خاضعة للزمان والمكان والثقافة اي انها تصلح للثقافات والأزمنة والأمكنة اللاحقة ونحن لا نسلم لك ان تلك الاجتهادات التي نتبعها هي وليدة زمان ومكان وثقافة ومحدودة بهذه الحدود الثلاثة بل إنها نتيجة صياغة عقول عظيمة تجعل منها اجتهادات مطلقة لا يجوز الخروج عنها

الجواب أن اي نص إلهي يحتوي على بنى معرفية وسياقات معرفية معينة فالنص إما ألا يكون فارغاً من المعنى وإما ان يكون فارغاً من المعنى وإذا كان غير فارغ من المعنى بل فيه معنى بداخله فإنه إما ان يحتوي على سياق معرفي واحد او على عدة سياقات معرفية متعددة فالنص الذي يقول ان دمشق عاصمة سوريا او محمد رسول الله يحتوي سياقا معرفيا واحدا لا غير وأما النص الذي يقول بعض سكان دمشق اذكياء وبعض سكان دمشق ليسوا بأذكياء فإنه يحتوي عدة سياقات معرفية ومثله النص الذي يقول محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار او النص الذي يقول والسارق والسارقة فاقطعوا ايديهما جزاءاً بما كسبا وقبل ان اشرح ما هي السياقات المتعددة ولماذا تتعدد وكيف نتعامل معها لا بد ان نعرف السياق المعرفي للنص يمكن القول ان السياق المعرفي هو معنى محدد او مجموعة معاني محددة يشير إليها النص في مستوى بنيانه لكي يتلقاه القارئ ويتشكل لديه معطى معرفي معين من هذا النص سواء كان النص ذا سياق واحد أو متعدد السياقات . من هنا يتبين ان وظيفة السياق المعرفي او السياقات المعرفية هي بث معنى او معاني للذهن البشري لكي يتحول ذلك المعنى إلى معطى أو معطيات معرفية يستفيد منها الذهن والعقل البشري إذ ان النص من دون ان يكون له سياق او سياقات معرفية سيكون نصا خاليا من المعنى وفارغاً منه وبالتالي لن يستفيد منه الذهن في تشكيل معطيات معرفية فلو كتبت عبارة تينبنتين. نينينينحخ . سيكون نصا خاليا من المعنى إذ لا توجد فيه سياقات او سياق معرفي يمكن ان يستفيد منه الذهن ويشكل

منه معطيات معرفية ولكن لو قلت لك اينشتاين من أعظم العباقرة في العالم سيكون نصاً ذا معنى لأنه يتكون من سياق معرفي يستفيد منه الذهن على شكل معطى معرفي يدخل في عمليات محاكمات معرفية او يخزن في الذاكرة او نخرج منه بنتائج معرفية حاكمية يقينية من خلال عمليات المحاكمات المعرفية 1 كل تلك العمليات يستطيع العقل ان يقوم بها حين يكون للنص سياقا معرفيا وحين لا يكون له سياق معرفي لا يمكن للعقل ان يقوم بتلك العمليات

نتوجه الآن للبحث في طبيعة السياقات المعرفية التي تبثها النصوص فمن خلال تبيان هذه النصوص نستطيع تبيان لماذا لا يستطيع النص ان يتجرد عن الزمان والمكان والثقافة . فالسياق المعرفي حين يبث سياقا او سياقات معرفية لا بد ان يكون مفهوماً لعقل المتلقي وحين يكون مفهوماً لعقل المتلقي فهذا يعني أن هناك معطيات معرفية سابقة او معطيات حاكمة وبنية عقلية سابقة عن السياقات المعرفية التي يبثها النص 2 فالعقل الذي يحول تلك السياقات لمعطيات معرفية لا يستطيع القيام بتلك العملية إذا لم تكن هناك بنية معرفية سابقة عن السياقات المعرفية للنصوص موجودة في العقل وفي حال خلو العقل من تلك البنية المعرفية السابقة فإن النصوص ستصبح مجهولة له لأنها غير مفهومة حتى وإن كانت تلك السياقات معروفة لغيره من الأشخاص الذين لديهم بنية معرفية سابقة على تلك النصوص تتفق معها . فمن هنا نستنتج ان البنية العقلية السابقة لورود النصوص يجب ان تتوافق مع النص الوارد ولكي يكون النص مفهوماً لا بد ان يكون في العقل بنية معرفية سابقة عليه ومن دون هذه البنية المعرفية تغدوا النصوص غير مفهومة لجهل العقل بالسياقات المعرفية التي تحتويها تلك النصوص . بعد تثبيت أركان هذا البحث سوف ننطلق لتحليل هذه البنية المعرفية السابقة على النصوص وإذا تبين ان هذه البنية هي وليدة الزمان والمكان والثقافة ومحدودة بحدود معينة فحينها ستكون النصوص والسياقات المعرفية ايضا توافق تلك البنية ومن ناحية موافقتها انها تتوافق معها من ناحية الزمان والمكان والثقافة وإلا لو كانت تلك النصوص مطلقة او متحررة من الزمان والمكان والثقافة فإن سياقاتها المعرفية تكون غير متوافقة مع البنية العقلية وبالتالي غير مفهومة لعقل المتلقي مع أنه قد ثبت انها مفهومة للعقل

ملاحظات مهمة حول البحث السابق : نعرف ان النص يحوي سياقات معرفية متعددة إذا كان من الممكن تحليل النص إلى وحدات متعددة او سياقات متعددة مثل ان نقول ان اهل دمشق مجتهدين فهذا النص يمكن تحليله إلى وحدات اصغر على سبيل المثال ان (أ . ب . ت . ن . م) من أهل دمشق فحينها يمكننا ان نطلق صفة الاجتهاد على (أ) على حدة وعلى (ب) على حدة وعلى (ت) وهكذا وتسمى هذه العملية بتحليل النص إلى فئات أصغر ولكن هذه الفئات متضمنة في النص

الاساسي الذي يحوي داخله جميع السياقات المعرفية

اما لو أخذنا على سبيل المثال قضية مثل زيد الذي قال أن السيارة قد ذهبت هو صادق فإن هذا النص يحوي سياقا معرفيا واحدا ولا يمكن تحليله إلى نصوص أخرى مشتقة عنه إذ أنه لا يحوي إلا سياقا معرفيا واحدا وهو ان زيد صادق

في خبره عن السيارة التي ذهبت وبالتالي يجب التفريق بين النص الذي يحوي عدة سياقات معرفية من حيث قابليته للتحليل واشتقاق قضايا اصغر من القضية التي يبثها النص الأصلي وبين النص الذي لا يحوي إلا سياقا معرفيا واحدا ويتم تمييزه بعدم قابليته للتحليل

السياقات المعرفية قد تنقسم إلى عدة أقسام منها ما هو معلوم للمتلقي ومنها ما هو غير معلوم للمتلقي لكنه لا ينفي وجود سياقات معرفية ولكن المتلقي لهذه السياقات إما يجهل لغة النص كإن نخاطب شخصا بلغة لا بجملة تحوي سياقات معرفية ولكن الشخص لم يفهم اللغة فهل هذا يعني خلو الجملة من السياقات المعرفية الجواب كلا ولكن هناك جهل معرفي بلغة النص لدى المتلقي ما يجعله عاجزاً عن إدراك السياق او السياقات المعرفية للنص ، وقد يعلم الشخص لغة النص ولكن ليس لديه بنية معرفية سابقة عن السياقات المعرفية التي تبثها الجملة كأن نقول لشخص يجعل علم الكيمياء إن هناك روابط كيميائية بين الذرات فرغم ان هذه الجملة تحوي الكثير من السياقات المعرفية المختلفة ولكنها بالنسبة للشخص لأنه لا بنية معرفية سابقة لديه عن علم الكيمياء حتى يستطيع فهم ما تقوله الجملة الكيميائية . من هنا يظهر انه ليس كل نص غير مفهوم لشخص ما هو بالضرورة خال من السياقات المعرفية إذا لا بد من البحث في البداية عن اللغة التي صيغ بها النص هل يفهمها الشخص ومن ثم البحث عن البنية المعرفية السابقة في عقل ذلك الشخص التي تجعله أهلاً لفهم السياقات المعرفية وحين يتوفر هذان الشرطان ومع ذلك لا يفهم الشخص او لا يستطيع استنباط سياق او سياقات معرفية فحسنها يكون النص خال من المعنى وفارغاً ولا يحتوي بداخله سياقات معرفية

قلنا سابقا أن اي نص لا بد ان يأتي متوافقا مع سياقات معرفية وإلا يكون فارغاً من المعنى ولا بد لنا لكي نؤكد اهمية عملية التجديد ان نبرهن ان النص خاضع للزمان والمكان والثقافة وللبرهنة على ذلك لا بد لنا ان نبين علاقة النص بالبنية المعرفية من جهة وقد فعلت ذلك في الأبحاث السابقة وسننتقل الآن لكي نبين ان البنية المعرفية للعقل محدود. بالزمان والمكان والثقافة .

تتكون البنية المعرفية للعقل من معطيات معرفية خارجية واردة على اختلاف أنواع وأشكال تلك المعطيات ومن ثم يقوم العقل بتخزينها في الذاكرة او استعمالها ف

عمليات محاكمات معرفية يجريها وتتكون حينها البنية المعرفية المكونة من

المعطيات العقلية الحاكمة والبنية العقلية . كل ذلك يتشكل تبعا للمعطيات المعرفية الواردة من الخارج وهذه المعطيات المعرفية الواردة من الخارج سواء منها ما هو مستقل عن الزمان والمكان ومنها ما هو خاضع للزمان والمكان والثقافة ولا يتعداهما فالنص الذي يقول ان حليب البقر والغنم هو سائغ للشاربين ويشرب فور خروجه هو نص خاضع للزمان والمكان والثقافة وهي ثقافة عصور بدائية لم تكن ان هناك ضررا في شرب الحليب فور خروجه وأنه لا بد من غليه جيدا بسبب احتوائه على جراثيم تسبب امراضا معينة فمن هنا نجد ان النص خاضع للزمان والمكان والثقافة ولو سمعنا مثلا نصا يقول ان الأمراض البدنية تسببها ارواح شريرة او ان للرعد إلها او ان للأمواج إلهاً او ان الخصب في المحاصيل الزراعية مسؤول عنه إله يسمى إله الخصب وغير ذلك من النصوص التي لا تتوافق مع المعرفة البشرية الحديثة التي ناقضت تلك المعارف تسمى نصوصا خاضعة للزمان والمكان والثقافة

من ناحية أخرى لو تفحصنا النص الذي يقول ان الشمس تشرق كل صباح من الشرق نجد ان هذا النص لا يخضع لزمان ومكان وثقافة معينة او ما سوف اسميه الثالوث المقيد للنصوص وذلك لأن معطى معرفي كالشمس تشرق كل صباح من الشرق لا يختص بعصر دون عصر او مكان دون آخر او ثقافة دون أخرى وهذه النصوص تسمى المعطيات المعرفية المطلقة . فلدينا إذا معطيات معرفية مقيدة ومعطيات معرفية مقيدة وهذه المعطيات هي التي تشكل البنية المعرفية للعقل ولكن يظهر هنا امامنا سؤال مهم ما هو طبيعة المعيار التي نستطيع ان نفرق من خلالها بين المعطيات المعرفية المطلقة والمعطيات المعرفية المقيدة التي تشكل البنية المعرفية .

الجواب باختصار ان المعيار هو عدم قابلية المعطيات المعرفية المطلقة للخطأ وعدم القابلية لتبديلها بأي شكل كان لا بقدرة بشرية ولا غير بشرية فإذا تحقق هذان الشرطان وهما عدم قابلية التخطيء من جهة وعدم قابلية التغيير كان ذلك المعطى مطلقا ومن امثلة تلك المعطيات . الشمس تشرق من الشرق وتغرب من الغرب . 1+ 1 = 2 . إذا توقف القلب عن النبض يموت الإنسان . إذا لم يدخل الهواء إلى الرئتين يموت الإنسان . لكل فعل رد فعل يساويه في القوة ويعاكسه في المقدار .... الخ نجد ان كل المعطيات السابقة هي معطيات مطلقة لكون الشروط التي وضعتها تنطبق عليها وهذه المعطيات حين تخزن في عقل الإنسان وذاكرته وتصبح جزءا من بنيته المعرفية تصبح النصوص الآتية والتي توافق تلك المعطيات مطلقة ايضا فلو ان إنسانا قال لك . حين تجد ان الشمس تميل للغروب فاعلم ان النهار قد شارف

على الانتهاء . نجد إن هذا النص يوافق معطى معرفي مطلق وهو ان الشمس تشرق من المغرب وحينها يكون ذلك النص مطلقا غير مقيد بزمان ومكان وثقافة معينة وبالتالي يكون النص مطلقاً ولا يحتاج للتجديد إذا انه لا توجد معرفة بشرية او إضافة نستطيع ان نضيفها لتلك المعطيات

من ناحية اخرى إذا كانت المعطيات المعرفية قابلة للتخطيء وقابلة للتبديل او قامت عملية التبديل فعلاً فحينها تكون تلك المعطيات غير مطلقة ومحكومة بالثالوث المقيد وحينها فإن هذه المعطيات تكون مقيدة وإذا كانت البنية المعرفية او جزء منها يمكن القول أن البنية المعرفية او الجزء منها الذي يتكون من البنية يكون مقيداً أيضاً ولا يوصف بالإطلاق مثال ذلك كالمعطيات التالية : الأمراض سببها ارواح شريرة . الأرض مسطحة . للبرق آلهة مختصة به . الشهب هي رجوم للشياطين . الشمس هي التي تدور حول الأرض . في كل تلك المعطيات نجد انها معطيات مقيدة وغير مطلقة وذلك لأنها خطئت او كانت قابلة للتبديل حيث ان كل المعطيات التي قدمتها على سبيل المثال خطئت وحل محلها معطيات معرفية جديدة علمية وهذه النقطة تثبت أن تلك المعطيات المعرفية مقيدة غير مطلقة وبالتالي فإن البنية المعرفية التي تتكون من هذه المعطيات هي مقيدة غير مطلقة وهذه البنية المعرفية إذا وصفت بالتقييد فيحينها يمكن ان نوصف هذه البنية المعرفية بالتقييد وتلك البنية الناشئة عن تلك المعطيات تكون متأثرة بالزمان والمكان والثقافة وبالتالي تكون البنية المعرفية ايضاً الناشئة عن تلك المعطيات متأثرة بالزمان والمكان والثقافة وبالتالي هي مقيدة وبالتالي فهي غير مطلقة ويجب ان تخضع للتجديد

من هنا نستنتج ان المعطيات تنقسم إلى مطلقة ومقيدة والبنية المعرفية التي تنتج عن تلك المعطيات تنقسم إلى مطلقة ومقيدة ومن ثم فالمقيدة تخضع للتخطيء وقابلية التبديل . إذا كانت البنية المعرفية تتكون من معطيات متأثرة بالزمان والمكان والثقافة حسب ما اثبته سابقا فإن النصوص كما برهنت ايضاً تخضع للزمان والمكان والثقافة وذلك لأن النصوص حتى تكون مفهومة يجب ان تكون متوافقة مع البنية المعرفية وإذا كانت البنية المعرفية تخضع للثقافة كما بينت فإن النصوص التي تقابلها تكون متأثرة بالزمان والمكان والثقافة كونها تابعة للبنية المعرفية وهذا الذي نريد الوصول إليه وسوف اقوم بتبسيط الكلام السابق للقارئ بشكل رياضي حت ى يتسنى له فهمه بطريقة أفضل

معطيات معرفية مطلقة + عقل المتلقي = بنية معرفية مطلقة

معطيات معرفية مقيدة + عقل المتلقي = بنية معرفية مقيدة

ومن ثم ننتقل لمرحلة النصوص

نصوص مطلقة = بنية معرفية مطلقة

نصوص مقيدة = بنية معرفية مقيدة

وبالتالي حتى تكون النصوص قابلة للتجديد او لكي نتأكد إنها مقيدة يجب ان نثبت انها توافق بنية معرفية مقيدة وطريقة التأكيد انها توافق بنية معرفية مقيدة هي كونها ناتجة عن معطيات معرفية مقيدة اي لا بد إن نرجع إلى الأصل الأول وهي المعطيات المعرفية والتأكد منها إذا كانت مطلقة او مقيدة وطريقة الحكم على كون المعطيات المعرفية مطلقة ام مقيدة قظ بينتها من حيث قابلية التخطيء او التبديل فإذا كانت قد تم تخطيئها او استبدالها فبالتالي هي معطيات مقيدة

فمن هنا تظهر أهمية تجديد النصوص الدينية او تجديد الفهم الديني لأنه فهم قديم قد خطئ واستبدل ونجحت عملية الاستبدال وحلت محله معطيات معرفية جديدة فإذاً النص مقيد غير مطلق لأنه قد تأثر بعملية التبديل والتخطيء فحين ننظر إلى النص الذي يقول والسارق والسارقة فاقطعوا ايديهما جزاءاً بما كسبا نكالاً من الله نجد ان هذا النص مقيد غير مطلق وذلك لأنه قد تم تخطيئه في العصور الحديثة من النواحي الفلسفية والعلمية وتم استبداله بعقوبات أخرى للسارق في أغلب دول العالم فمن هنا يظهر أن النص مقيد غير مطلق وبالتالي يجب تجديد فهمه لكي يتسق مع الزمان والمكان والثقافة الجديدة

وحين ننظر للنص الذي يقول والزاني والزانية فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة او النص الذي يقول والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما . نجد أيضاً ان هذا النص مقيد غير مطلق ، وحين ننظر للنص الذي يقول من بدل دينه فاقتلوه هو أيضاً مقيد غير مطلق لأنه خطئ واستبدل أيضاً اي خضع للتخطيء والاستبدال اللذان هما صفتا النصوص المقيدة كما بينت سابقا . وبالتالي أمام هذه النصوص يجب ان نخضع النص للتجديد او تجديد الفهم المستنبط من النص إذ لا يمكن البقاء على النص القديم او الفهم القديم للنص لأنه لا يتسق مع الزمان والمكان والثقافة ومن هنا تظهر أهمية مسألة تجديد الفكر الديني ومسألة ان الدين يجب ان يتغير مع المجتمعات وكذلك القوانين التي تنظم حياة المجتمعات والفلسفات وبالتالي يجب الا تسيطر عقلية واحدية على المجتمع بل يجب ان يسود العقل التعددي دائماً وهذا مثال واحد ضربناه وهو مسألة النص الديني او القانوني لكي تتضح الصورة للقارئ الكريم

نحن نسعى لعقل تعددي يسود في المجتمع؛ عقل يجوز فيه الاختلاف ولا يُحرم،

عقل يؤدي إلى مجتمع تعيش فيه رؤى مختلفة وأفكار متضاربة تؤدي إلى تطوره وازدهاره. فمجتمعاتنا تئن حتى اليوم تحت تأثير سيطرة العقل التوحيدي الواحدي، الذي أدى إلى انهيارها وتخلفها. نحن نحلم بذلك اليوم الذي سوف نخرج به من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن جحور التاريخ إلى زمن الحضارة، ومن التعلق وتقديس الماضي إلى الالتفات للحاضر والتخطيط للمستقبل.

لا نريد للأجيال القادمة أن تعاني مما عانينا منه نحن جيل الألفية؛ جيل عاش في بعض البلدان حروبًا وتهجيرًا وفقرًا وتشريدًا. لذلك نأخذ على عاتقنا كرسالة للإخوة الإنسانيين أن نسعى كل السعي لإرساء عقل تعددي في مجتمعاتنا التي لا تزال تحت سيطرة العقل التوحيدي، وسوف نضع هذا الهدف نصب أعيننا.

نحو هوية إنسانية

تتشكل هوية الفرد عادة منذ الولادة عبر التأثيرات المتعددة من الأسرة والجيران والمدرسة ووسائل الإعلام. باختصار، أي وسيلة تخبره: "نحن الفلانيون". مسألة الهوية معقدة وكبيرة وعرضة للجدل والتسييس إلى حد كبير، وليس من السهل الحسم فيها.

لنأخذ مثالاً على المشهد السوري اليوم: كردي، عربي، سني، علوي، شيعي، مسيحي، إيزيدي، ملحد، أرمني، تركماني. وقد برزت هذه الانتماءات بقوة في هذه الأيام بعد سقوط النظام. وقد نطرح بعض التساؤلات: هل الهوية دينية طائفية؟ إذا كان الأمر كذلك، فما جوهر الخلاف بين العرب السنة (المتمثلين في دولة دمشق) والأكراد والسنة (المتمثلين في وحدات حماية الشعب الكردي)؟ أم هل الهوية قومية؟ إذا كان الأمر كذلك، فما جوهر الخلاف بين العرب السنة والعرب الدروز والعرب العلويين؟ أم هي هوية اقتصادية طبقية؟ ففي كل جيش وميليشيا، جنودها من الفقراء يقتلون بعضهم، وهناك أغنياء يدعمونهم.

إذن، ما الهوية؟ هل هي السياسة والمصلحة التي تحددها؟ أم هي الجهة الرسمية التي تدفع لها ضرائبك؟ أم المكان الذي تعمل فيه وتأكل منه خبزك؟ في كل ثانية من التفكير في مسألة الانتماء والهوية، يزداد الأمر تعقيداً وضبابية. والهوية مصطلح غامض وغير محدد إلى حد كبير، مما يترك مساحة للأيديولوجيا والإعلام والسياسة حتى تلعب ألعابها الخبيثة، وتجمع الناس في جماعة مفترضة لتنال مصالحها.

والتفكير في مسألة الهوية ليس أمراً ترفيهياً زائداً عن الحاجة، بل هو مشكلة حقيقية تؤثر في العمق السوري وتوجهه الاجتماعي والسياسي. فهناك ما يسمى بالكيان الكردي، والكيان العربي السني (باختصار "الصدامي" نسبة إلى صدام حسين)، والكيان الدرزي. ولكل جماعة جيش وإعلام وسياسيون ومفاوضون ومناطق نفوذ. في الإعلام جدالات، وفي السياسة خلافات وأهداف متناقضة، وعلى الأرض حروب واشتباكات وتنافر مجتمعي وكراهية.

بغض النظر - إلى حد بعيد - عن محاولات الإعلام تشويه ذلك، ومحاولات إسرائيل (وربما الولايات المتحدة) اللعب على وتر الهوية لتقسيم البلاد وزيادة استنزافها وإضعافها. وكل ذنبنا أننا على حدودهم. يريدون صنع لبنان أخرى، أو لنقل ليبيا أخرى، أو على الأقل سودان أخرى، وعلى المدى البعيد فلسطين أخرى. لذا، فإن التأسيس الثقافي لمسألة الهوية ومعناها قد يكون له تأثيره على الساحة السياسية

السورية، وفي توجيه النسيج المجتمعي السوري بعيداً عن الحروب والانهيار إلى الوراء أكثر فأكثر.

فهل الهوية مطلقة، أي ساكنة لا تخضع للمتغيرات الزمانية والمكانية، بل وحتى للظروف الاقتصادية والقناعات الفردية والفلسفات؟ نعلم بالاستقراء أن الهوية متغيرة بحسب الظروف، أياً كان نوعها، ويظهر تأثيرها في المناخ العام للقناعات والعادات واللغة واللباس والطعام والثقافة والتعليم والمهنة والفن. أما كيف تتغير وما مدى تأثير كل عامل، فهذا ما يحتاج إلى باحث مختص لتحديده.

قديماً، كان العرب بدواً، ثم ممالك، ثم حضارة إسلامية، ثم إمبراطورية منهارة ومستعمرات أوروبية، ثم حكومات عربية وممالك. تفرعت اللغة العربية إلى لهجات مصرية وسورية وتونسية وفلسطينية، وظهرت على شكل عادات وأشكال مدنية مختلفة ومتفرعة، مثل الفرق بين المصري والخليجي في العادات واللباس والثقافة. ولا أظن أن هناك ما يجمعهم سوى بعض الأمور كالجذر اللغوي (أي الفصحى) والدين كالإسلام، والتاريخ.

وهناك هويات مختلطة لا تعرف لأي أصل تعود، كالمردلية في الحسكة، فهم لا هم عرب ولا سريان ولا أكراد، بل يجمعون بينهم لغوياً وثقافياً وشكلياً. هناك هويات تتغير مع الزمن بل وتختفي، وتولد أخرى مع الزمن، لنقل مثل الشعب الإسرائيلي اليوم، فقد استطاعت دولة اسرائيل أن تدمج بين عناصر مختلفة متنافرة، بل واضطرت أن أعيد احياء لغة قديمة هي اللغة العبرية وتجعلها لغة اسرائيل الرسمية . هناك هويات تفنى ولم يعد لها أثر، مثل الهوية المنانية، وهناك هويات تتغير مع المكان، مثل الفرق في العادات والتفكير والثقافة بين السوريين المهجرين والسوريين في البلاد، والفرق بين الإسلام الوهابي السعودي والإسلام الصوفي الشامي والإسلام الإيراني الشيعي، والفرق بين أكراد عفرين وأكراد عين العرب وأكراد القامشلي الذي يصل إلى حد الاختلاف في اللغة والعادات.

وهوية جماعة ما قد تكون مختلَقة اختلاقاً، ويثبتها الإعلام ويركز عليها السياسيون. فكل مجموعة أفراد لديهم صفات مشتركة مع آخرين وصفات مختلفة فيما بينهم. فبالشكل، العلوي والسني السوري يشتركان باللغة العربية، فنطلق عليهما اسم "العرب" ونثبت لهما جماعة ونعاملهما كوحدة لا تتجزأ. والعربي والكردي قد يجتمعان بالإسلام السني واعتقادهما بالله رباً وبالإسلام ديناً ومحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً والقرآن كتاباً. والعلوي والدرزي والسني والكردي والعربي كلهم فقراء عمال وفلاحون في مواجهة الأغنياء من نفس العرق والطبقة، فنطلق عليهم اسم "البروليتاريا".

فكل فرد قد يشترك مع غيره بأمر ما، وبهذه الصفة المشتركة نصنع جماعة. وقد يختلف مع غيره بصفات يتميز بها عن غيره، وبهذا نفرق بين الجماعات. وقد بين راسل في كتاب "أصول الرياضيات" كيف يمكن بناء مجموعة أفراد من تصور (فصل) يدل على كل فرد أو على أفراد هذه المجموعة. ثم بعدما اكتشف راسل نظرية الأنماط وبأبحاث كارناب وفيتغنشتاين، تبين أن "الفئة" رمز ناقص أو لفظ فارغ لا معنى له، يستخدم للإفادة ولا وجود موضوعي له. وكما يستخدمه فلاسفة فيينا وفلاسفة أكسفورد: الشخص يموت، بينما "الناس" لا تموت. الشخص ينام، بينما "الناس" لا تنام. الشخص حقيقي ملموس بلحم وعظم ودم، له وعي وفكر، بينما "الناس" مجرد لفظ ليدل على مجموعة أشخاص ولا وجود موضوعي له.

وكذا الأمر بالنسبة لعلوي وسني وعربي وفرنسي ومسيحي وكردي. أستطيع أن أصنع منك ومن كأس الشاي طائفة، فأقول "طائفة الأشياء". وعندما يكسر أحمد الشرع كأساً من الشاي، أرسل للمرصد السوري قائلاً له: "دولة دمشق تضطهد وتستهدف طائفة الأشياء"، فتخرج أنت مذعوراً حاقداً على حكومة دمشق.
باختصار، الفرد حقيقي، بينما الجماعة لفظ مفيد، تستطيع اللعب به كما تشاء. حافظ الأسد حكم سوريا بكونه عربياً، وإسرائيل تريد أن تحكم الشرق الأوسط باسم "القومية الإبراهيمية"، والولايات المتحدة تحكم العالم باسم "الإنسانية"، والاتحاد السوفيتي كان يريد غزو العالم لكونه "حاكم الفقراء".

والمُوجِّه لها قديماً كانت الهويات تُنسج لضرورة طبيعية، كالجغرافيا مثلاً. فمن الجبال والوديان والبيئة القاسية، حيث صعوبة أو سهولة الانتقال بين المناطق، تحدد احتمالاً إذا كان أهل هذه المناطق سيتزاوجون أم لا، أو فيما إذا كان سيحصل تواصل بين هذه المناطق مما يؤدي إلى التقارب اللغوي وتعلم بعضهم من بعض في الحرفة والصناعة.

لذا، فالهُوية ديناميكية متغيرة، بل ومطاطية مرنة، تتأثر بالظروف وتتغير مع الزمان والمكان والاقتصاد والأحوال. والهُوية قد تتغير حتى على مستوى الأحياء الشعبية (المناطق) في نفس البلدة. فابن الريف ليس كابن المدينة، وابن الضاحية ليس كابن الأماكن الغالية. وعلى مستوانا في سوريا، نجد أن للحلبي طعاماً ولهجة وأساليب تختلف عن الدمشقي. وفي دمشق نفسها، نجد لابن الغوطة وابن ريف دمشق اختلاف كثير عن ابن الشام المدينة، كأهل القنوات وباب مصلى والشاغور. وعلى مستوى دمشق المدينة، يوجد اختلاف بين أبناء الميدان عن أبناء الشاغور عن أبناء الصالحية، واختلاف عن أبناء ركن الدين وأبناء القادسية. وحيث في بعض المناطق كالميدان اختلط الحوارنة مع الشوام، وفي ركن الدين اختلط الأكراد

والشركس والشوام والقلمونيون والعلويون. من خلال اجتماع الجيران في الحارة والأطفال في المدرسة، تشكلت هوية خاصة لأهل ركن الدين تختلف اختلافاً جذرياً عن أهل مساكن برزة وأهل الصالحية. وعلى مستوى ركن الدين نفسها، يختلف أبناء صلاح الدين وأسد الدين تماماً عن أبناء الجبل من الشيخ خالد والكيكية والمناطق التي هي وسط فيما بينهما (الشيخ محيي الدين والشيخ إبراهيم) والتي لها هوية مختلطة جداً تجمع بمزيج غريب بين كل هذه المناطق، هي وادي سفيرة.

بعد كل هذا التفصيل الممل، ترى كيف أن الهوية تختلف لأبسط الأشكال ولأسهل الأسباب. وأجيالنا من ناحية اللغة واللباس والعادات نختلف عمن كان قبلنا قبل 100 عام، ونختلف أكثر فأكثر عما كانوا قبلنا بألف عام، وهكذا.

لذا، لست أعتقد أن للهوية أي معنى موضوعي ولا أي وجود مادي، وكل ما ليس له وجود مادي فلا وجود له إلا في التلاعب بالألفاظ التي لا مقابل لها في العالم الواقعي. وكل ما يمثل لنا من ثقافة وعادات وقيم وفلسفة ستفنى وتذهب، كما ذهب سلفنا ونذهب، وستصبح مجرد ذكرى وفولكلور، كما أننا سنصبح صوراً معلقة على الحائط في النهاية.

لذا، فلا معنى للتركيز على الهوية لأي نوع كانت، لأنها عرضة للفتنة والهراء والضياع على لا شيء، ولأنها سهلة التلاعب وتخضع لاعتبارات ذاتية محضة كالعواطف والشهوة والمصلحة، ولا مقياس موضوعي للهوية، والانتماء نسبي محض.

قد يسأل سائل: ماذا عن الأمور المشتركة الواضحة والكثيرة؟ أقول: لا نفعل شيئاً. من تحبه ويحبك، فالأمر ممتاز. ومن يؤذيك ويكرهك، عالج الأمر سواء كان هذا الشخص أخاك أم غريباً، أو أياً ما كان. فلا علاقة للهوية بذلك، فالمصلحة والأخلاق تتجاوز الهوية وتصعد فوقها. ولكن للأسف، المصلحة تستخدم الهوية والانتماء لغرض ما.

فلا كردي ولا سني ولا عربي ولا علوي ولا درزي، فقط أشخاص يبحثون عن الرزق والأمان، ويسعون للسعادة: طلاب مدارس، طلاب جامعة، أصدقاء، زملاء عمل، موظفين، لا أكثر ولا أقل. كل هذه الأعلام هي قماش، وكل هذه الشعارات هي ألفاظ، أي أصوات في الهواء. والدين مجرد اعتقاد، أي شيء ما يعتقده الشخص، قد يتغير لتغير القناعة أو حادث ما شخصي، وليس أبدياً ومطلقاً. والمصير هو حال إنسانية محض، لا علاقة للدين والقومية بالموضوع. فلو وقعتَ أنت وكلب ما في خطر، يصبح لديكما مصير واحد، وان كانت الهوية مخترَعة اختراعاً، فلماذا لا نستخدمها لشيء ينفعنا؟ لنقل مثلاً: الوحدة على رخص الأسعار،

أو الديمقراطية، أو حقوق العمال، أو الحقوق الإنسانية للطفل والمرأة والعامل، أو نتحد على الصناعة والتنمية الاقتصادية والبحث العلمي. أو لنقل: كشركة اقتصادية اجتماعية، هويتها التنمية والازدهار والديمقراطية. حتى لو كان الحاكم إبليس والجنود شياطين، إذا كانوا يحموننا ويطعموننا، فأهلاً بإبليس، ومرحباً بكل من يطعمنا ويحمينا.

العقيدة الدينية والطائفة:

هذا الموضوع قد طال وطال إلى حد بعيد وزاد عن اللازم، وأفرط الحديث عنه لعشرات ومئات وآلاف السنين، ربما بسبب التأثير الكبير جداً للدين والعقيدة على النفوس والاقتصاد والسياسة والحروب. فالجماعات الدينية لها وحدة عجيبة وقوية وتأثير خارجي على المجتمعات من حيث تنظيمها بوحدات وشعائر ودور عبادة ورجال دين وحقوق وواجبات، وله تأثير داخلي على النفوس من حيث الحوافز والرغبات والعواطف، كالجنة وعالم الملكوت أو إرضاء وجه الله، مما يؤثر على السلوك والرغبات كالصدقة والزكاة والجهاد والامتناع عن الزنا. فتأثير الدين والعقيدة في المجتمع مثل تأثير الاقتصاد بل ويفوقه في بعض الأحيان في نظري. كمثال: أفغانستان وإيران، ففكرهما الديني أدى إلى انحطاطهما الاقتصادي وانعزالهما عن العالم الكبير اليوم.

ففي عالم السياسة، يحب القادة التركيز واللعب على هذا الوتر والتحكم به. فالنظريات الدينية وتأثيرها ونفوذها يفوق أضعاف النظريات السياسية العلمية من حيث التأثير والنفوذ، خصوصاً في عالمنا الشرقي والعربي. وللفكر الديني أبعاد عميقة في الروحانيات والفلسفة والأدب وعلم النفس والعلم وعلم النفس التحليلي والفن والحياة الاجتماعية والاقتصادية والتاريخ. لذا، فالتوسع في مفهوم الدين والعقيدة هو مضر للكاتب والقارئ على حد سواء، لذا سأعتمد في الحديث عنه بشكل عام وسريع.

فعلى المستوى العام، سنقسم المناقشة إلى ثلاث مستويات، وهي: المستوى العلمي، والمستوى الاجتماعي الشعبي، والمستوى الفردي الذاتي.

أولاً، أما على المستوى العلمي، فلا نستطيع رؤية الدين إلا على أنه ادعاء بوجود شيء ما موضوعي، وقد يكون له تفسير لبعض ما يحدث في العالم أو حتى ما يقع لدينا شخصياً. أي باختصار هو الدعوى فقط. فالأديان خصوصاً في المشرق العربي (سوريا على وجه الخصوص) تكون بوسيط نبي أو إمام أو ولي، يدعي أن لديه

الحق اليقين، وأن الخلاص يكون على ما يدعو إليه، ويحكى عنه المعجزات، ويُقتدى به كمثل أعلى، وأقواله وأفعاله وخططه ستحقق بأي طريقة كانت بالقوة أم بأي شيء آخر.

ببساطة، سيقول العلم بمنهجه وأسلوبه: ما الدليل؟ أعني دليلاً من التجربة أو أي شيء له قيمة موضوعية خالية من الشهوة والتطرف والهوى والخوف؟ نجد من الناحية العلمية للدين في طرق الإجابة: إما السيف، أو الترقيع، أو الفصل المطلق بين الدين والعلم. فالعلم لا يرحم، ومنهجه لا يتغير. فلو أخفيت الناس بسيفك على أن تقنعهم بأن الأرض مسطحة، لن يسير الأمر إلا بدليل ملموس مباشر مقنع. وأعتقد مسألة السيف لا تحتاج إلى مزيد من المناقشة لأنها واضحة البطلان بذاتها.

وأما الترقيع أو التبرير، فيسير الأمر على التأويل، أي إما تغيير مضمون الدين ليلائم العلم، أو تغيير مضمون العلم ليلائم الدين. وهذه الفكرة غاية في الغرابة حقاً. فعلى مستوى منطقي: إذا قال العلم قضية (أ)، وقال الدين قضية (ب)، والعلم يقول (أ) ليس (ب). إذا الدين يقول شيئاً يناقض العلم مناقضة تامة، حيث (أ) لا تساوي (ب). ومنه، إذا صدقت إحدى القضيتين كذبت الأخرى بالضرورة. وأما على مستوى لغوي (وهو ما يتمسك به عادة من ناحية المجاز اللغوي أو الفهم المقصود ما وراء السطور)، فالأمر ليس كذلك، لأن المجاز هو مجرد وظيفة لغوية معناه استخدام الكلمات على غير وجهها لإيصال معناها. أي وبشكل مختصر: اللفظ غير، والمعنى نفسه. والفرق بين الكلمة والمجازية في اللفظ لكن يوصلان المعنى نفسه: نقول "زيد كالجبل" أو نقول "زيد قوي"، كلاهما يصلان نفس المعنى، ألا وهو تصور مدى قوة زيد. نقول: المقصود صناعة تصور حول نفس المعنى، أي قوة زيد، سواء باللفظ الصريح "زيد قوي جداً" أو المجاز "زيد صخرة صلبة". لذا، حتى المجاز والرمز لا فائدة منه إن لم يوصل إلى قلب المعنى مباشرة. قد تقول: "الضوء كعكة". هذا ماذا تفهم؟ ماذا نفهم من هنا؟ لا شيء. لذا، الذي قد يسمي مجازاً هنا ليس أكثر من هراء. فالنص الذي يسمونه مجازاً هو أحد الأمرين: إما صريحة لوجه الحقيقة، ومنه خرافة تناقض العلم صراحة، أو مجاز لا يوصل إلى معنى، ومنه لا فائدة من الكلام، إذاً هراء.

وقد يذهب صاحبنا المتدين إلى أحد أمرين: هو أنه إما العلم ناقص ومتغير ولم يصل بعد إلى الكشوف العظيمة التي توصل إليها النص قبل 1400 سنة. وهنا دخلنا في "الكشوف"، أي بأمر تجريبي، أي أمور تقع تحت الملاحظة والتجريب والاختبار. فنظريات العلم تدعي، ونصوص الدين تدعي، فكلاهما الدعوى. ومنه، ومن وجهة نظر موضوعية حيادية، نحن لا نعرف مدى صحة الادعاء من كذبه حتى يقع تحت اختبار وتجربة، وبذلك فقط وفقط نقيم فيما إذا كان الادعاء صحيحاً أم كاذباً. أما

الحالة الحيادية عند الحياديين أو الفارغ عند الوضعيين، هذا يبان بالالتباس اللغوي والإشكال المنطقي، هذا خارج العلم وسياقه ومنهجه. ولكن الفرق هو أن العلم لا يقف عند نظرية ولا يتشبث بالدعوى، حتى لو تبين زيف وتناقض النظرية ترمى ببساطة، ويبحث العلم في غيرها. أما الدين، فعموده وأساسه يقوم على ادعاء، فإذا تبين كذب هذا الادعاء أو تناقضه أو مخالفته للاختبارات الصريحة، ينهار الدين بأساسه وكل بنيته. لذا، ففي العلم منهج وليس ادعاء، والعلم وسيلة وليس أقوالاً، والعلم أداة وليس مضموناً، والعلم حيادي وليس جماعة، والعلم أدلة وليس عقيدة، والعلم نتائج وليس نصوصاً، والعلم فعالية ومهارة وأدوات اختبار وبحث وليس نصوصاً وعقيدة ودعوى. العلم لا يقول شيئاً بل يخبر. العلم لا يعطيك عقيدة جاهزة، بل يعطيك الأداة تختبر بنفسك النتائج. فالعلم فيه كل المؤهلات التي تخول له البحث عن الحقيقة: الأداة والاختبار والدليل، وتخول أن ما يخبره به العلم قريب جداً من الحقيقة الفعلية. هذا بجانب أنه متجدد ومتغير، يحتاج إلى جهود جماعية وتعاون، والنتيجة تعلم من أين أتت وكيف، ومن الذي قام بها. أما الدين فلا.

وبرأيي الشخصي، للعلم الحق في البحث فيما إذا كان مضمون هذا الدين صحيحاً أم لا: خرافة أم معقولية، نظرية أم جنون. ذلك لأن الدين ادعاء، مثله مثل أي ادعاء، مثل الدعاوى والنظريات تماماً. لذا، فلنا الحق في إخضاع أقواله ونصوصه للاختبار، فإذا كذبت الاختبارات النصوص (أو لنقل بعضها) كان الدين كله كاذباً. لماذا؟ لأن الدين كل مترابط، لا يمكن أن تؤمن ببعض ولا تؤمن ببعض. فإذا كذب بعضه كذب كله. أما العلم، فهو نظريات منفصلة معزولة، مهددة كلها بالإزالة تحت الاختبار والتكذيب تحت التجربة.

لذا، من يثق بنصوصه فليعرض مضمونها على العلم الحديث، وليقبل النتيجة دون تأويل وتغيير وترقيع، سواء كان البحث في الفيزياء أو التاريخ أو البيولوجيا. إن كنت مستعداً للتخلي عن عقيدتك ودينك من أجل العلم، ففي العلم موجود دائماً، والاختبار في كل لحظة متوفر. وقد يعترض علينا أحد: ربما العلم لم يصل بعد إلى الأداة التي تثبت أو تفني الأجزاء القطعية والصريحة في النصوص، كالأمور الغيبية ووجود الله. هنا نأخذ الأمر على قسمين: الأول، ما يقع تحت الاختبار مباشرة، مثل النصوص التي تقول إن الشمس تطلع من عين حمئة، أو أن الأرض مركز العالم، أو أن الكون عمره 6400 سنة، أو أن المرض النفسي هو جني يتلبس بالمريض. هنا، إذا كذب أي قول مع الاختبار البسيط أو اليومي، كان الدين كله كاذباً؛ لأنه كما قلنا، الدين كل مترابط، إلا إذا كان يؤمن صاحبنا هذا أن الله قد يكذب على عباده.

أما القسم الثاني، فهو ما لا يقع تحت الاختبار مباشرة. هنا ننظر إلى أحد أمرين: الأول، هل ما يؤدي إليه الاعتقاد بالغيبيات شيئاً تصدقه أو تكذبه التجربة أم لا؟ فإن

كان ما يؤدي إليه مكذباً بالتجربة، كان كاذباً بالضرورة. أما لو كان صادقاً، فلا نؤمن بكل الدين؛ لأنه قد يصدف مصادفة أن وافق قول هذا المدعي شيئاً في العلم الحديث، تماماً مثل موافقة العلم الحديث لديمقريطس في مسألة الذرة، لكنه لم يوافق العلم بباقي مسائله. وكذا الدين، إذا صدق جزؤه لم يصدق كله، بينما إذا كذب جزؤه كذب كله.

أما إذا لم يقع شيء من الدين ونصوصه تحت الاختبار والتجربة، حتى لو على المدى البعيد، مثل مناقضة نصوص الدين للانفجار الكبير أو أي شيء من قبيل ذلك، هنا لا نكذب ولا نصدق، بل نعلق الأمر تماماً ريثما تتطور العلوم الحديثة وتقطع بالإجابة.

وقد يعترض علينا معترض: أنا أفضل الدين ومنهجه على العلم، فالعلم لا قيمة له ولا أساس له عندي (وقد سمعته من البعض بلا شك). هنا لا أقول سوى كلام بسيط: العلم يثبت نفسه بالأداة التي هي متوفرة غالباً، كالحاسوب والمنطق والرياضيات والمجهر. والعلم واحد لدى كل الناس، ويعطي نفس النتيجة في كل أنحاء العالم وفي جميع الأزمنة. إذاً، فلا خلاف بين أحد على العلم ولا منهجه ولا مضمونه؛ لأن العلم قد أثبت نفسه بالاختراعات والتجارب وكل الحضارة الحديثة العلمية التكنولوجية التي حولنا. والكل يستخدم العلم في حياته اليومية ويستعمل ثماره، كالتلفزيون والهاتف والميكرويف والسيارة. لا شك، لا تستطيع نكران أن العلم منهجه مفيد وقوي وحقيقي؛ لأنه يثبت نفسه كل يوم وفي كل حين وفي كل مكان، ولا يضطر لاستخدام السيف أو العنف حتى تقتنع بنتائجه وثماره وفوائده، على الرغم مما فيه من ضرر عند استعماله خطأ، كالحروب والطيران الحربي والقنابل النووية. ولكنه على الأقل حقيقي، وفي وقت الحاجة لا نستعمل غيره. نستخدمه لتقنية الغذاء، وليس سحراً وقوة وادعاءً، وليس دعاءً وتضرعاً، بل ما نستخدمه هو تقنيات علمية لمعالجة الغذاء واستخراجه واستخدامه. نستخدمه للعلاج والعمليات الطبية، وليس مسحة شيخ وزيت كنيسة. نستخدمه في الحروب لردع العدو بالطيران والقنابل النووية والمسيرات، وليس بعقيدة المجاهد.

بعد كل هذا الإثبات، لا داعي للكلام والشرح أصلاً، بل كل شيء من ناحية العلم واضح وضوح الشمس. هنا ينطبق قول أبي حامد الغزالي: "خذ ما رأيته ودع شيئاً سمعت به، ففي طالع الشمس ما يغنيك عن زحل".

أما الدين، فهو مجرد ادعاء ليس له ثمار ملموسة ومستخدمة، ولا يثبت نفسه، بل يجبر الآخرين بالسيف والسجن، وهذا دليل قوي على الهشاشة والضعف الذي يتضمن بنية الدين وعقلية أهله. وفي أوقات الحاجة والصعبة، الناس تتناسى وتتجاهل الدين، مثل السرقة والرشوة والشهوة الجنسية، على عكس العلم الذي

نستخدمه في الأوقات الصعبة وعند الحاجة. رجال الدين يتعبون أكثر فأكثر في دعوة الناس، لكنهم يفشلون غالباً ويبقى الأكثرون فساقاً وعواماً. ولكن تقنية علمية بسيطة كالإنترنت تغير وجه مجتمع كامل.

لذا، وعلى الصعيد الواقعي، لا مقارنة بينهما سواء بالمنهج أو بالنتائج. فلا مقارنة بينهما، العلم أقوى بكثير. والذي يبدي الدين عن العلم هو أحمق بلا شك. برأيك، ما الذي يجعل البعض يفضل ادعاء عادياً وقديماً عن منهج ذكي وأدوات قوية وتقنيات عظيمة؟ الحماقة، لا شيء آخر.

أما من يفصل مطلقاً بين العلم والدين، ويقول: "لكل مجال، لا يتداخل مع الآخر"، فهذا كلام إنشائي لا يمت للواقع بصلة. بالطبع، الدين لا يدعي أشياء ومشاعر في وجدان الإنسان لا يستطيع العلم النفاذ إليها (مثل الفرويدية) بل، الدين يدعي أموراً موجودة موضوعية لها وجود فعلي مؤثر، مثل الباب الذي تراه أمامك والكتاب الذي تمسكه بين يديك الآن. ويدعي أيضاً أن له تأثيرات ملموسة متحققة على أرض الواقع والحياة اليومية، كالدعاء والتبرك وما إلى ذلك. فهذه الأشياء الملموسة والفعلية هي من اختصاص العلم؛ لأنه يبحث فيها بأدوات موثوق بها، كالمجهر والحاسوب والرياضيات وميزان الحرارة والمنطق وكافة الأجهزة العلمية. بينما الدين يدعي بلا أدوات، ويترك ادعاءه، ويأمر بالإيمان بها هكذا دون دليل، وإلا فالسيف، أو أنت منحل الأخلاق.

إذاً، هذا الأمر موجود وجوداً موضوعياً، أما أن تصدق حوله ادعاءات، أو تذهب تختبره وتراه. فإذا صدقت ادعاء ما، فقد تدينت. وإذا اختبرته، فقد تعلمت. الاختبار يعطي نتيجة واحدة هي الحقيقة. بينما الأديان هي ادعاءات تكفر بعضها وتكذب بعضها، أي تعطي نتائج متناقضة، ليس على أي منها دليل واحد. لهذا، ليس يصح أن للعلم مجال وللدين مجال. وموضوعهما واحد: موضوعهما هذا الكون وتاريخه، موضوعهما الإنسان ونفسه وخلقه، موضوعهما التاريخ البشري والمعجزات. فهذا يدعي أن الكون عمره 6400 سنة، وهذا يثبت بأدوات موثوقة أن عمره 4.5 مليارات سنة. هذا يدعي أن الكون خاتم على ظهر بقرة تجري في الظلام (تفسير الكلبي الفصل لابن حزم)، وهذا يثبت بالأدوات الموثوقة التي تستطيع التأكد منها بنفسك أن الكون عبارة عن مجرات تتمدد وتبتعد عن بعضها.

باختصار، للدين والعلم مجال واحد، لكن أحدهما يدعي والآخر يثبت. أحدهما يكفر والآخر يجدد. أحدهما له منظومة لا تتغير ولا يرضى بشيء آخر، والثاني يختبر ويبحث عن أدلة. أحدهما يتمسك بصورة قديمة تستخدم العنف لإثباتها وتثبيتها، والآخر يقترب من الصورة الحقيقية أكثر فأكثر. باختصار شديد: أحدهما خاطئ

والآخر صحيح. وأعتقد إلى هنا يكفي.

وأما على المستوى الاجتماعي: بعد ما يصبح للجماعة عقيدة واحدة ومنظومة أخلاقية واحدة، يتجذر الأمر بمفهوم العادات والتقاليد. فالمجتمع هو بناء معقد أكثر مما نعتقد، فهو علاقات اقتصادية وأسرية وصداقات وإداريات، وله أنماط عيش تجعله يستمر في الوجود من خلال تأمين الطعام والكهرباء والمواصلات والدخل والأمان، من خلال الدولة والعمل والتجارة والفن والدراسة. يعتمد عموماً على أربع أركان، وهي: الزراعة، والصناعة، والتجارة، والثقافة. الزراعة لكي تؤمن احتياجات الناس الخام وغيرهم: مأكولات وملبوسات ونقاوة بيئة. والصناعة الكبيرة والحرفية والمهن، كالمصانع الكبيرة والعمارة والمنتجات والتكنولوجيا، لكي تؤمن احتياجات الناس الأساسية والاستهلاكية وحتى الرفاهية والثقافية، كالكهرباء والمياه الساخنة والجوالات والمعلبات والسيارات والشاشات والمقص والماكينة والبنسلين، إلى آخره. والتجارة لتبادل المنتجات بإعطاء الفائض وأخذ المنافع مما ينقص المجتمع، ويعطي احتياطي وقت الحاجة، ويعطي استمرارية لنمو الصناعة والزراعة بل وحتى الثقافة. وأما الثقافة، فيشمل التعليم والأخلاق والفن واللباس والذوق والنظافة والرفاهية والدين والعادات والتقاليد والتراث والآداب والفولكلور والأشياء التي يحبها الناس عموماً، واللغة والكتابة والخرافات الشعبية، بل وحتى الثقافة العلمية العامة. ويشمل أيضاً نمط المعيشة العام، كطريقة البناء وأسلوب الأكل والضيافة وعادات الزواج والميراث وشكل دور العبادة. ولست أهدف هنا لبناء نظرية في علم الاجتماع، بل غاية التركيز فقط على الركن الثقافي والجانب الديني منه، بما له تأثير على الثقافة وباقي الأركان.

هنا لن ندرس سوى ظاهرة الاجتماع الديني. المجتمع الديني هو الذي يقوم على عقيدة وطقوس وأخلاق عامة، جذورها غالباً العقيدة والطقوس، كذلك جذورها من العقيدة. لهذا يعتقد مشايخ الشام (منهم العالم الفذ محمد تقوى على سبيل المثال) أن العقيدة أساس كل شيء. لهذا صرح تقوى في شرحه لكبرى اليقينيات للبوطي أن العقيدة تنعكس على الأخلاق والسلوك بل وحتى كل شيء في الحياة.

العقيدة قد وفينا الحديث عنها سابقاً عندما تحدثنا عن علاقة الدين بالعلم. أما الآن، فلا بد أن نقول شيئاً ما عن الأخلاق. ولا أقصد بالأخلاق الفردية كالمسامحة والكرم والمحبة، بل الأخلاق الجماعية والعادات والتقاليد التي تتداخل بقوة في الدين عندنا في بلاد الشرق، على عكس بعض المجتمعات الآسيوية. على أي حال، العادات والتقاليد في الدين (التي أساسها طبعاً العقيدة) عند المسلمين خصوصاً: الخوف من عذاب النار هو الحافز الرئيسي والأقوى للأخلاق، وإلا -على حسب قول أحد المشايخ المصريين- "سيضاجع الناس أمهاتهم". أعني، وبعد أن تعلم أن لهذا الكون

صانعاً انطلاقاً من مقدمات ضرورية وبديهية، ثم تؤمن أنه أرسل رسولاً معصوماً لا ينطق عن هوى بل يسمع ويخبر، وأن ما نقله في كتاب هو قول هذا الصانع. وهذا الصانع قال: إن من لم يتبع أوامره سيعذبه عذاباً أبدياً. لذا: لا تزني ولا تقتل ولا تصرخ ولا تضاجع أمك ولا تشرب خمراً، وصلِّ وصم وأعطِ 2.5% من حد النصاب، وطبق أوامر الله.

ترى كيف أن أخلاق أهل السنة في بلادنا تقوم على ثلاثة عناصر مترابطة جداً، وهي: الإيمان بخالق، والإيمان بصدق محمد صلى الله عليه وسلم، والإيمان بالقرآن. وكيف أن أخلاق الشيعة تقوم على عنصر رابع زيادة، ألا وهو قول الإمام المعصوم المنصوص عليه يقيناً. ولكن متى بطلت العقيدة تحت معايير البحث العلمي ومنهجه، سقطت معها الأخلاق والعادات والتقاليد.

يعني مثلاً: لو أنه بعد فترة من الزمن أثبت العلم أن العالم أوجد نفسه عن عدم، أو نظم نفسه بنفسه، أو أنه فوضوي وعشوائي إلى حد ما، أو أن المواد الحية وجدت بفعل عوامل طبيعية (أي عدم وجود الله قطعاً)، هل ستنهار كل تلك القيم الأخلاقية والعادات والتقاليد، فلا فائدة من مناقشة هذه الأخلاق من منظور عقلي؛ لأن الذي يعتنقها سواء كانت منطقية أم لا، سيتبعها رغماً عنه، وإلا سيرمى في النار. كانت عقلانية أو مجنونة، إنسانية أو حيوانية، المهم ألا يرمى في النار. وليس لأن هذا الفعل فضيلة وهذا الفعل رذيلة. وهذا كان جوهر الخلاف بين أهل السنة والمعتزلة، حيث أعاد السنة الأخلاق إلى النصوص المنزلة لأنها أوامر الله، أما المعتزلة فرأوا أن الأخلاق عمدتها العقل، وأن الحسن والقبيح (أو بمعنى آخر الفضيلة والرذيلة) هو ما حسنه أو قبحه العقل. فلو أنزل في النصوص: "اقتلوا أولادكم وكلوهم" لفعلوا، ولو أنزل: "حرم عليكم الماء والفول والحليب" لفعله. ليس لأن هذا الفعل بحد ذاته رذيلة وهذا بحد ذاته فضيلة، بل لكي ينال النجاة من النار. ولهذا يكثر المسلمون من عبارات مثل: "طريق النجاة"، "سفينة النجاة"، "النجاة من النار". أي أن أخلاقهم من منطلق الانجذاب نحو اللذة والهرب من الألم، لكن بأسلوب غير مباشر: فالله إما يمنحك لذة أبدية أو ألماً أبدياً، فقط أن تضحي بالقليل في هذه الدنيا لكي تربح الكثير في الآخرة.

ترتبط الأخلاق عند البعض ارتباطاً لا انفصام له بالعقيدة، ويقيناً بفكرة أن هذه النصوص والأوامر ليست كلاماً على ورق، بل لائحة قوانين من خالقك وخالق هذا العالم، الذي سيرميك في النار إن لم تطع لائحة القوانين الخاصة به. لهذا ليس من المجد مناقشة صلاحية هذه العادات وهذه المنظومة مع العقل أو مع الحياة اليومية، فيما إذا كانت مناسبة أم لا، بل كل همه أن يخاف الله ويرجف أمامه، وإلا يحترق جسمه بنار لا تُطفى، وجلد يُبدل خلف جلد، ولكي يذهب إلى جنة فيها حوريات

لممارسة الجنس، ونهر من خمر، ونهر من لبن، وظِلمان للخدمة، وفاكهة وشجر وبساتين. لذا، مناقشة هذه النصوص على ضوء العلم الحديث كافٍ برأيه، وعرض نصوصه على الاختبار يكفي لكي يُطلع تناقض هذا الرجل بهذه الأخلاق أم لا. ما رأيك بأناس حتى اليوم يقبلون بنصوص تبيح امتلاك إنسان لآخر، والرق والعبودية، وبيع العبد وشرائه، وأنه يُؤجر ويصبح تركه ميراثاً لورثته، وتُبيح اغتصاب سبايا الحرب ووطئهم للذة، وقتل كل من نبت شعر عانته؟ أو نصوص تقول إن الشمس تخرج من عين حمئة؟ لذا فالحل يكمن عند العلم، ولا مجال آخر.

الآن لنذهب إلى نوع آخر من دعاة الأخلاق، هو أن هناك قيماً أزلية وأخلاقاً أبدية يجب أن تُطبق بالقوة تحت رقابة المجتمع، سواء كان هناك إيمان بالله أم لا، وإلا فالمجتمع سينهار وسيصبح الناس منحلين أخلاقياً، وسينحط الناس إلى مستوى البهائم. هذا قول الكثير من المشايخ ذوي الاتجاه العقلي، وقول الكثير من رجال الدين المسيحي، وقول الكثير من البعثيين والقوميين العرب من ناحية انهيار المجتمع. فهذا أغرب ما قد يقال على الإطلاق، لأن المجتمع عبارة عن أفراد، والفرد يبقى ما دام طعامه متوفر، ويستمر أكثر إذا تزاوج، وإذا توفر طعام للأجيال التالية وتزوجوا استمر أكثر فأكثر، وبهذا لن ينهار هكذا وبكل بساطة. انهيار المجتمع يكمن في الفقر والجوع والحروب، وليس في الزنا أو الأكل نهار رمضان أو سماع فيروز نهار الجمعة. المجتمع مستمر ما دامت علاقات التبادل مستمرة، ما دامت وسائل الإنتاج الزراعية والمزارعون، ووسائل الصناعة والتكنولوجيا والصناعيون والمهندسون مستمرين، ما دامت الشهوة الجنسية موجودة ويستمر الجنسان بالتزاوج وإنجاب الأطفال، وما دامت العلاقات التجارية من بيع وشراء وتأجير واستهلاك المنتجات والطلب والعرض مستمرة. فهذه الأمور مستمرة ليس لأنها فضيلة، أو لأن الناس يحبون الحضارة ويحبون استمرارها، بل لأن الحاجة تفرض ذلك. فالجائع كي يستمر بقاؤه سيعمل، والذي عنده أرض كي يأكل سيزرع والفائض منه سيبيعه، والتاجر كي يضمن بقاءه وتنمية أمواله سيبادل البضائع ويشتري ويبيع، وهكذا يستمر المجتمع أياً كانت عقيدته وأخلاقه وعاداته وتقاليده. تذكر أن هناك مجتمعات بكاملها بلا دين ولا تؤمن بآخرة لكنها قائمة ومستمرة مثل اليابان والصين وكوريا، لكنها باقية ومستمرة ومجتمعات محترمة ومتقدمة. هناك مجتمعات "الدعارة" توجد بأسواق، والخمر يباع بصناديق، لا تذهب بعيداً. المجتمع الإسلامي كان يخطف البشر ويبيعهم بالأسواق ويطأ البنات فيها والغلمان الأطفال العبيد. راجع "تزيين الأسواق" من أخبار العشاق الأنطاكي. راجع تاريخ الأدب العربي لحنا فاخوري، قسم أبو نواس. راجع سير أعلام النبلاء للذهبي، قسم محمد بن داود الأصفهاني. راجع "طوق الحمامة" لابن حزم. ومع ذلك استمر ألف سنة على هذه الحال.

فنمط الأخلاقيات تفرضها التربية أولاً، وأسلوب العمل وطبيعته ثانياً، ثم القناعة الشخصية ثالثاً. مثلاً، أخلاق الفلاح ليست كأخلاق البدوي، ليست كأخلاق التاجر. التاجر بحكم معاملاته الكثيرة مع الناس تفرض عليه أخلاقيات معينة، مثل اللباقة في الحديث والنظافة وعدم نقض الميثاق كي لا يفقد الناس ثقتهم به. أما الفلاح فقد لا يرى الناس كثيراً، بل كل تعامله مع الأرض، سواء كانت له أخلاق أم لا، الأرض ستنبت له طعاماً. والتجارة في الطعام لا تحتاج إلى ذكاء، بل أي جائع يريد الطبخ والأكل سيشتري، وسيضع أسعاراً يستطيع أكبر عدد ممكن من الناس دفعها بحيث يعطيه المبلغ ارتفاعاً إلى حد بعيد. لهذا نجد صعوبة في أخلاقه وجفافاً إلى حد بعيد، وسوءاً في التعامل في كثير من الأحيان، وغالباً قلة نظافة. وعلى ذلك قِسْ على الصناعي والأكاديمي والبدوي. فنمط العيش (أي ريف، بادية، مدينة) وأسلوب العمل (أي تاجر، عامل، فلاح، أستاذ، رجل دين) هي التي تحدد الأخلاق بصورة أولية. ثم ظروف التربية (في المساجد عند معقدين نفسياً، لدى أكاديمي محترف)، والطابع البيولوجي من موروثات فوق جينية، هرمونات وصفات من الأهل، والظروف الاقتصادية الحالية (أزمة اقتصادية أو رفاهية، ركود، تضخم، ازدهار، تقدم) هي التي تحدد الأخلاقيات بصورة ثانوية. ثم أخيراً تأتي القناعة الشخصية كتحصيل حاصل لكل ما ذكرنا، بالإضافة للقراءات المفيدة وتجارب الغير.

لذا، لا ينظر أصحابنا من رجال الدين في الأخلاق بهذه النظرة الثاقبة والتبسيطية إلى هذه الدرجة. هم يقولون ذلك بحكم وبطبيعة عملهم: هم، معظم أموالهم وحركة اقتصادهم عن طريق التبرع والهدايا من الناس الذين يعظمونهم، بل وحتى معارف العمل عن طريق سمعتهم كرجال دين، هذا بجانب المنصب واحترام الناس لهم. فعندما يترك الناس الدين تتوقف التبرعات والهدايا والمعارف والتعظيم، وتفرغ جيوبهم من الأموال التي تأتي بلا جهد، وهو ما يعني انحلال المجتمع وانهياره بنظرهم. لو كانت هذه الأموال تُنفق على المشاريع والصناعة والعلم، بدلاً من الصرف على المقامات والاحتفالات الدينية والمساجد والكنائس! حقاً، لنفكر بمنطقية: ما الفائدة من هذا الصرف الضخم على الكنائس والمساجد، وعلى المقامات والقبور التي ليست أكثر من صخور وتراب؟ لو بُدل كل مسجد بمنزل لعائلة، ماذا يحصل؟ هل هذا انحلال بنظرهم؟ لو بُدل من المهر الغالي مشروع ينهض بالوطن، ما المشكلة؟ هم ينطقون بمصالحهم وبطبيعة عملهم كنصابين يأخذون المال بلا مقابل. فإذا فقد الناس الدين، ذهبت حججهم، وهم في النهاية يدافعون عن أرزاقهم، تماماً مثل رجل يبيع الناس قناني من هواء بأسعار غالية، فإذا حاولت أن تقنع الناس أن شراء الهواء لا فائدة منه، سيحاربك التاجر بأشد ما عنده، لأنك تضرب تجارته المربحة المريحة. عندئذ سيضطر أن يعمل ويجهد، مثله مثل باقي الناس. الفرق بين

بائع الهواء هذا ورجل الدين هو أن الأخير يبيع كلاماً فقط. وصاحبنا رجل الدين هذا هو بائع هواء، يدافع عن تجارته. أنت ما عليك سوى أن تقنع الزبائن بالإقلاع عنه.

باختصار، ما دام هناك زراعة وصناعة وتجارة وتزاوج، فالمجتمع مستمر، حتى لو كانوا همجاً إلى أبعد الحدود. وما دام هناك أناس مجتمعين، فلا بد أن هناك صناعة وزراعة وتجارة وتزاوج بين الجنسين. فالجوع والحاجة والغريزة الجنسية هي المسبب للصناعة والتجارة والزراعة والتزاوج. إذاً، الجوع والحاجة والغريزة الجنسية هي الضامن الوحيد للبقاء والاستمرار. وما الأخلاق إلا أمراً زائداً عن الحاجة، أي شكل في الكلور (محيط) لعلاقات التكامل بين أفراد المجتمع. فنمط الإنتاج والربح (أي اللذة المعممة والمستقرة والمجددة) هي التي تحدد العلاقات بين الناس السياسية، التجارية، الطبقية، ومنها الأخلاقية. فالسارق وقاطع الطريق والمهرب سيستمر في عمله إذا جنى له ربحاً، ونمط الإنتاج (السلاح والسيارة والبشر) متوفر. والتاجر مستمر في عمله إذا جنى له ربحاً، ونمط الإنتاج من بضاعة ورأس مال متوفر. وكذا الطاغية السياسي، والأكاديمي، ورجل الدين يستمر في عمله. إنما الأمر يعود في النهاية بالنتيجة إلى الربح وضمان العيش الكريم. فالطاغية إذا توفر نمط إنتاجه (سجون، تعذيب، خوف، كلابه المدللين) ضمن ربحه من السلطة والمال والتحكم والعيش كإله. ورجل الدين إذا ضمن نمط إنتاجه (خرافة، نصوص، أمور لا يفهمها كل الناس، سمعة، وعوام أغبياء، أتباع يعظمونه) ضمن له ربحاً من حيث التبرعات والسمعة والمعارف. والأكاديمي وسائل إنتاجه مهارة علم تقنية تأثير على الحياة اليومية اقتصاد، يجني ربحاً من حيث الوظيفة والمنصب والراتب والسمعة. لذا فكل فرد وطبقته تسعى للحفاظ على نمط الإنتاج ووسائله، بل وتطويرها وتقويتها للحفاظ على الربح، ومنه ضمان العيش الكريم الذي يتمناه كل حيوان، ومن ضمنه الإنسان. فتجار الصناعة يطورون في المعادن وأنصاف النواقل وتقنيات الغذاء والاتصالات كي يأتي الزبائن أكثر ويضمنوا ربحاً أكثر. والأكاديميون يبحثون أكثر في الاختراعات والعلوم كي يحتاجهم التجار والصناعيون وأبناء الأثرياء في الجامعات والمجلات العلمية والقنوات التلفزيونية والدول، ويضمنوا وظائف واحترام الناس لهم كأسياد ومناصب وغير ذلك. ورجل الدين سيدافع عن خرافاته ونصوصه والعادات لأنها وسائل نمط إنتاجية تدر عليه أرباحاً، ولن يتخلى عنها بسهولة. يدخلون في الدولة والقانون، ويتقربون من كل سلطة، يشكلون أحزاباً وصحفاً وقنوات تلفزيونية، يستفتحون المدارس والجامعات، يربون الأطفال ويدعون الشباب، وكل ذلك للحفاظ على وسائل إنتاجهم ليبقى ربحهم مضموناً وأكيداً.

وأَنوه على أن الربح لا يشمل المال فقط، بل أي شيء يرغب الإنسان في تحقيقه لنفسه كالمنصب والسمعة والعيش الكريم والزواج من فلانة والترفع. ومع ذلك، فنظريتنا لا تمثل الواقع بدقة لأننا أهملنا التأثير النفسي السيكولوجي من حيث الدوافع والرغبات والعقلية والقناعة والحوافز، حيث إن تأثير الهرمونات في الجسم والنواقل العصبية والغذاء والتربية والمنعكسات الشرطية واللاشعور والأنا الأعلى والدوافع والحوافز وتأثير البيئة، كلها تؤثر بشكل عجيب ومعقد، فتحليلنا قد لا يستوعب بدقة ما الذي يحصل. لذا فالمجتمعات مستمرة ولا يخاف أحد على ذلك، وما العادات الخلقية إلا إطار مضاف على الشكل الأساسي، وقد يكون ناتجاً عنه بالضرورة. وقد تمر أزمات على المجتمعات تؤدي إلى انهيار نسبي فيه، لكنه حتماً انهيار اقتصادي، أي الفقر والغلاء والبطالة والجريمة والاغتصاب والسرقة. فالذي يسرق لا يسرق لأن الله غير موجود ويقول "هاها الله غير موجود، إذاً سأتخذ السرقة هواية، ولأنني ملحد قذر"، بل لأن الجوع والفقر لم يتركا له مجالاً آخر لاختيار وسيلة إنتاج أخرى. والذي يعذب إما لأنه يخاف من الذي هو أعلى منه، أو لأن دماغه محشو بأيديولوجيات دينية قومية طبقية، أو له حقد شخصي، أو فيه اختلال عقلي أو ما شابه، وليس لأنه لن يُرمى في النار إذا فعل ذلك، أو أن هناك منظومة خلقية تأمره بذلك. وكذا الطغيان والتدين.

فإذا أردت تغيير مجتمع، غيّر علاقات وسائل الإنتاج فيه وعلاقات العمل وأساليب الربح، ليس "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر". وهذه الطامة (العقدة) في هذا الأسلوب لا يعاني منها رجال الدين فقط، بل عامة المثقفين العرب: يرى أن الناس ضالة وحمقاء ولا تعرف مصلحتها، وهو يشرب كأساً من الشاي تحت مكيف، يتسلى بقلمه أو بحاسبه، حتى يعيد هؤلاء الجهلة والمرضى إلى طريق النور الذي أضعه! ولا أحد مريض سوى عقولهم الضالة بالنرجسية.

وقد يسأل سائل: هل الأفكار المجنونة كالدين والأيديولوجيا وما شابه لها تأثير مفيد أو أضرار، حتى لو ناقضت مصلحة الأغلبية والشكل الاقتصادي المتاح الأمثل؟ نقول دون كثير من الكلام: انظر إلى إيران وأفغانستان وفنزويلا، وستفهم ماذا أقصد. أعني، قد يجبر البعض على نمط معين بسبب التطرف لثقافة ما، أو بسبب عقيدة معينة يؤمنون بها بكل قوة، أن يلغي كل شكل آخر كي يبقى شكل واحد هو المفروض بالقوة، أو حتى بالتلقين والترديد والتربية الممنهجة، لا بالاختيار الحر، ولكن طبقاً للطبيعة والضرورة. فأما انهيار الناس في البؤس والكآبة، وهذا سببه الفقر طبعاً، والركود الاقتصادي، وعلاقات مضطربة إلى أبعد الحدود، ربما مافيات، ربما استغلال اقتصادي، ربما ميليشيات، ربما فساد إداري. وإما وضع مستقر جداً دون تطور ولا تقدم، فيَسبقهم غيرهم ويبقون هم كما هم، مثلما سبق

الأوروبيون وسادوا أهل المشرق بالعلم والحضارة والاقتصاد والسياسة والقوة،

بينما بقي العرب والمسلمون كما هم، ذلك لبقائهم على يد الطغاة على نمط القرن التاسع، وذلك بسبب أيديولوجياتهم التي تقدس الآثار والرجوع إلى الماضي وتقديس القدماء والعيش معهم وإحياء قضاياهم. وإما تقدم وازدهار، إذا كان الفكر يعطي راحة وحرية للجميع حتى يبدعوا ويقدموا، ويعطي علاقات عادلة، ويوفر أنماط إنتاج واقعية ومفيدة للجميع، وليس لطرف على حساب باقي الأطراف، مثل الطاغية والسارق والبرجوازي في القرن التاسع عشر.

ومقياس الأمر يعود إما إلى أمثلة تجريبية من الواقع والتاريخ، كأفغانستان وإيران والاتحاد السوفيتي والغزو الأوروبي للعالم في القرن الخامس عشر، أو الحضارة الإسلامية. وربما مقياسه يعود للميزان العقلي والخبرة الحياتية والخبرة في التاريخ الذي هو مادتنا التجريبية عادةً، مثل سوء فكرة المهر وقباحة العبودية. وما هي أسباب تقدم اليابان؟ وأسباب انهيار سوريا الأسد؟ وأسباب تقدم الإمارات؟ أو سبب تقدم إسرائيل وانهيار إيران؟ وواقعنا اليوم. وأعتقد أننا قد أعطينا ما يكفي من التحليل النظري، بحيث وصلت الصورة للقارئ.

خلاصة الكلام: اليوم ومع تطور العلوم والفيزياء والطب والتكنولوجيا، لم يعد هناك حاجة للطوائف. فالعلويون كانوا يعتقدون بأن علي بن أبي طالب فوق السحاب، اصعد اليوم فوق السحاب لم تجده إلا بخاراً وهواء. أبو حامد الغزالي عندما قذف الله النور في قلبه كتب في مؤلفه "مشكاة الأنوار" إن العالم يتألف من تراب وماء ونار وهواء، وهي العناصر الأساسية التي يتألف العالم من أخلاقها، وهي نظرية كذبها العلم بامتياز. المسيحيون كانوا يعتقدون إن العالم عمره 6000 سنة، وإن المرض العقلي سببه شيطان يتلبس إنساناً، وإن زيت الكنيسة علاج لكل الأمراض، وإن العبيد يجب أن يخضعوا لساداتهم، وعلى المرأة أن تخضع لزوجها ولا تتساوى المرأة مع الرجل، وعلى المواطن أن يطيع السلطان. والمسلمون السنة كانوا يعتقدون إن الحبة السوداء علاج لكل داء، وشرب بول البعير مفيد، وإن الكون مع الأرض وجد في ستة أيام، وإن الشمس تخرج من عين حمئة، وإن المطر والرعد يتولى أمره ملاك وليس بخار البحر، وإن الأمة العبد يطؤها سيدها، وإن العبد واجب عليه طاعة سيده وإلا عليه لعنة الله ورسوله، وحرمة العبد الأبق (أي الهارب من سيده)، ولا حد على من نكح محارمه... إلخ. والدروز كانوا يعتقدون إن الحاكم بأمر الله هو الله نفسه، وإن الشخص بعد الموت تذهب روحه لشخص آخر. وهي أمور كذبها العلم وبقوة. لذا، وما تقدم وتطور العلوم، يبقى من البلادة ومن الحماقة أن يبقى الشخص على طائفة، أو أن يجوع ويبرد ويضحي بروحه من أجل رئيس الطائفة الثرية، ومن أجل أساطير كذبها العلم بقوة. فلا أضحي بروحي ولا بمالي

من أجل أساطير وخرافات، ولا عليها الزمان. هذه من ناحية العقيدة.

إذاً، هل نحن بحاجة لطائفة ننتمي إليها شكلياً؟!

الاجتماع يكون لحاجة،يكون جهد جماعي منظَّم جبار لتحقيق الربح على كل من ساهم في هذا العمل. أما لو هذا الاجتماع ضر ولم ينفع، فمن الحماقة البقاء فيه والإبقاء عليه. فلو كان الاجتماع لتحسين قانون العمل، أو دعم البحث العلمي، أو إيجاد وسائل العيش، أو رخص الأسعار، أو دعم التعليم، أو إلى ذلك، لكان ذلك خيراً ونفعاً عظيمين. لقد اعتاد رجال الدين على بيع الهواء والكلام، وهاهم يفعلونه من جديد في بلادنا. بدلاً من أن يفكر الرجل في خبزه ولقمة عيشه ورفاهيته، يفكر في فلان أقليات، ونحن الأغلبية، ونحن مستهدفون! فيخرج من الخطبة متحمساً، فيعود إلى منزله جائعاً وأولاده يبكون على اللقمة.

ليس في سوريا إلا طائفتان: إحداهما أكثر وهم الفقراء، والآخرون أقلية وهم الأساتذة والأغنياء. الدرزي والعلوي والسني والعربي والكردي الفقير يموت من الجوع ويبرد في الشتاء، وليس في جيبه ما يسد رمقه وجوعه. هو في الحقيقة واحد، الجوع جوع، والبرد برد. أياً من كان يبرد أو يجوع. الفقراء طائفة واحدة، لأن لهم نفس المصير: إذا وقعت الحرب هم الذين يموتون وبيوتهم التي تدمر، وهم الذين يجوعون ويبردون ويتشردون، وهم ضحايا أي أزمة من بطالة وتعذيب ولجوء وذل ومرض. أما الأساتذة من رجال الدين وقادة الأحزاب والأثرياء، يأكلون ويشربون تحت المكيف، وفي بيوت جميلة وحياة رغدة، وهم أي خلاف بينهم ومنافسة على النفوذ والأموال، يتحرك الفقراء لمناصرتهم باسم الطائفة والقومية والقضية... إلخ. الجندي فقير، السجان فقير، الشرطي فقير، العامل فقير، الحارس فقير. إلى كل منهم: يعكر حياته حتى يصنع فلان ما مجد على لقمة أولاده وسعادته

فالطائفية كذبة يراد بها جعل الفقراء والمعانين على كلام فارغ من أجل تحصيل أرباح ونفوذ وأمجاد. لذا، نبذ الطائفية ليس فضيلة فقط، بل بداية حتى يدرك الأكثرون مصلحتهم الحقيقية، ألا وهي البيت والعمل والزواج.

نحو المنهج العلمي

لقد كان العقل البشري الأداة التي نقلت البشرية من الكهوف إلى ناطحات السحاب، ومن التنقل على الأقدام إلى التنقل بالطائرات والوصول للفضاء. لقد كان ذلك العقل مذهلاً؛ كيف نقل البشرية بعد عشرة آلاف سنة إلى مراحل متقدمة ربما لم نحلم بها، لم يحلم بها أسلافنا.

ولكن كما كان لذلك العقل فضل كبير في إنجاح وتقدم البشرية، كان له دور رئيسي في تأخر البشرية أيضًا، أو لنكون أكثر دقة أن بعض أنواع العقل قد أخرت بعض المجموعات البشرية وبعض المجتمعات البشرية. حيث تعيش بعض المجتمعات تأخرًا وتخلفًا ورفضًا للركوب في قطار الحضارة نتيجة العقل نفسه، أو نتيجة طبيعة العقل أو نوعه. فالعقل قد يكون سبب تقدم المجتمعات وسبب تخلف أخرى.

مشكلة العقل البشري أنه من الناحية الفكرية لا يأتي بقدرات كاملة صحيحة حين ولادة الإنسان، رغم أنه يقوم بالوظائف الحيوية والجسمية بشكل دقيق؛ فهو ينظم على سبيل المثال ضربات القلب ويستجيب للألم وغير ذلك. ولكن من الناحية المعرفية فإن العقل يكون ناقصًا، بل ربما لا يمتلك حتى أداة اكتساب المعرفة. فاللغة على سبيل المثال لا تكون موجودة في الدماغ حين ولادة الإنسان، بل يتعلمها من المحيط التأثيري من حوله. واللغة، أي لغة كانت، هي أداة اكتساب المعرفة، وهي الأداة الأولية لاكتساب المعرفة من المحيط التأثيري، أي المعرفة الموجودة في العالم الخارجي. وبالتالي تكون هذه منقصة في العقل في البداية.

المشكلة الثانية في العقل هي أنه يكتسب كثيرًا من أجزاء المعرفة، ومن طريقة المعرفة، ومن طريقة التفكير من المحيط التأثيري الخاص به أو الذي يحيط به. وبالتالي يلعب ذلك المحيط التأثيري دورًا كبيرًا في عملية تكوين ذلك العقل. فالطريقة الاكتسابية للمعلومات تجعل العقل ينطبع بنمط تفكير المحيط التأثيري الذي يكتسب منه تلك المعلومات. وبالتالي إذا كان نمط التفكير وطريقة المحاكمة والطريقة في التفكير خاطئة، فإن عيوب التفكير تلك وعيوب الطريقة تلك سوف تنتقل إلى العقل نفسه. فلو كان على سبيل المثال طريقة التفكير في المحيط التأثيري تؤدي إلى الاعتقاد بأشياء خرافية لا وجود لها، وأشياء مناقضة للعلم التجريبي الذي ثبت صحة نتائجه، فإن هذه الطريقة سوف تنتقل للفرد، وسوف يصل العقل إلى نتائج خاطئة في طريقة التفكير. وتلك النتائج الخاطئة سوف تؤثر سلبًا في حياة الأفراد والمجتمعات؛ لأنها تبعدهم عن النتائج الصحيحة وثمرات الاستفادة من النتائج الصحيحة. لذلك نجد أن هذا عيبًا قاتلاً في العقل، وهو اكتسابه لأداة المعرفة

وهي اللغة أولاً، واكتسابه لطريقة المعرفة أو لطرق التفكير أو للإبستمولوجيا نفسها من المحيط التأثيري، بسلبيات ذلك المحيط التأثيري وعيوبه. كل ذلك يجعل العقل بعيدًا عن الموضوعية في كثير من الأحيان، ويبعده أحيانًا عن الوصول إلى نتائج صحيحة، بل واعتماد طرق تفكير ونظريات معرفية خاطئة، واعتماده نتائج خاطئة تنعكس على المجتمعات نفسها التي تعتمد تلك النظريات في التفكير وتلك الطرق في المعرفة.

العيب الثالث في العقل هو صعوبة التغيير في بنيته الإبستمولوجية، وخصوصًا بعد أن يمضي العقل وقتًا طويلاً يستخدم تلك البنية الخاصة به لوقت طويل من الزمن. وذلك أن العقل يميل إلى التأقلم مع وضع ما ولا يرغب في تغييره نتيجة البنية العقلية نفسها. ويزداد تغيير البنية الإبستمولوجية صعوبة حين تكتسب تلك البنية قدسية من نوع ديني أو قدسية من نوع أيديولوجي، مما يجعل تغيير تلك البنية محرمًا أو مجرمًا من الناحية القانونية.

تلك العيوب الثلاثة هي التي تجعل العقل البشري يدخل في أطوار تخلف في بعض المجتمعات، ويرفض الأخذ بالتقدم لدى مجتمعات أخرى. وأهم عيبين هما الثاني والثالث؛ لأن الأول لا تأثير له، أي أن اللغة واكتساب المعرفة أو أداة اكتساب المعرفة وهي اللغة لا تأثير لها في طرق التفكير بشكل عام. أما اكتساب البنية الإبستمولوجية وتقديس البنية الإبستمولوجية فإنه يجعل العقل يتأخر، بل يجعل العقل يدخل في أطوار متخلفة خاطئة، فيصبح عقلًا خرافيًا، وعقلًا دينيًا متعصبًا متزمتًا، أو عقلًا أدبيًا رومانسيًا، أو عقلًا أيديولوجيًا متعصبًا. ولا يجعل العقل يصبح عقلًا علميًا، وهو أي العقل العلمي درة التاج في التفكير وفي الإبستمولوجيا وفي النتاج البشري. وهو العقل الذي كان يطور البشرية منذ فجر التاريخ. وسوف نتكلم الآن باستفاضة عن العقل العلمي. إن العقل العلمي هو عقل يعتنقه بعض الأفراد وبعض المجتمعات، ويؤدي إلى تطور وازدهار تلك المجتمعات.

فالعقل العلمي هو العقل الذي يعتمد على العلم، ويبني حياته ومجتمعاته وطرق تفكيره ونظرياته العلمية وفلسفته على أحدث ما وصل إليه العلم فقط، ولا على شيء آخر، ولو كانت تلك النتائج العلمية تتعارض مع ديانته السائدة أو عاداته أو تقاليده. فالعلم لديه هو المعيار للحكم على تلك الأمور، وليس الدين أو العادات أو التقاليد هي معيار يحكم به على العلم. وعند العقل العلمي أن المجتمع بكل ما فيه يجب أن يساير العلم وليس العكس، فليس على العلم أن يساير المجتمعات. وبالتالي فإن العقل العلمي، والذي يأخذ بالعلم من جهة، وهو الذي يعتمد طريقة التفكير العلمية الصحيحة من جهة أخرى، وسوف نفرد عنده بعض الأبحاث عن منهج التفكير العلمي في صفحات أو أبحاث لاحقة. وأما الأشياء التي لا تخضع للعلم أو لا يطولها

البحث العلمي حالياً، كالميتافيزيقا والأخلاق والسياسة، فإن العقل العلمي يطور فلسفة علمية تتسق مع العلم نفسه ونتائج العلم نفسه، وتقترب كثيرًا منه من ناحية المنهج، وإن كانت لا تطابقه من ناحية المضمون.

إن علَّة مجتمعاتنا إلى الآن أنها لا تأخذ بالعقل العلمي وبطريقة التفكير العلمية، بل إنها تتبنى إما العقل الديني من جهة، وإما العقل الأدبي الرومانسي من جهة أخرى. فمن ناحية العقل الديني، يجب أن نتكلم عن العقل الديني الإسلامي بشكل خاص؛ لأن الإسلام كدين هو الذي يسود في مجتمعاتنا من جهة، ولأن الأديان الأخرى التي تسود في مجتمعاتنا كالمسيحية واليهودية، حتى عقلها الديني قد تخلص من العيوب التي سوف نتكلم عنها في بعض العقل الديني الإسلامي.

مشكلة العقل الديني الإسلامي أنه عقل شمولي، وهذه الشمولية مردها إلى النص نفسه. فالنص نفسه يريد أن يفرض تلك الشمولية على العالمين؛ فهو يريد أن يحاكم كل شيء في الحياة ويرده إلى النص نفسه، رغم أن أي نص كما بينا في بحث سابق مقيد، والمجتمع متغير. فإذا كانت حركة المجتمع نفسها تحمل صفة الإطلاق، فإنه يريد أن يحاكم المطلق وهو التغير والحركة إلى المقيد وهو النص. ومن ضمن الذي يجب أن يرجع ويحاكم إلى النص هو العلم نفسه. والعلم متغير مطلق، والنص ثابت مقيد، ولا يمكن لما هو ثابت أن يحوي المتغير المطلق؛ لأن المطلق كفكرة أوسع من المقيد وأشمل وأعم من ناحية التطبيق، فبينما المقيد أضيق من ناحية الشمول أو التطبيق. ولا يمكن للثابت أن يحتوي المتغير؛ لأن المتغير بحركته يتجاوز الثابت. وبالتالي لا يمكن إخضاع العلم للنص. ولكن العقل الديني الإسلامي يفعل ذلك ويريد أن يفعل ذلك؛ فهو يحاكم العلم والمجتمع والأخلاق والفلسفة وكل شيء إلى النص نفسه. فهو يرى أن النص يجب أن يحكم على كل شيء، وذلك لاعتقاده بإطلاق النص نفسه. وهذه فكرة خاطئة بحد ذاتها؛ فلا يجب أن يحاكم العلم بالنص؛ لأن ذلك سوف يؤدي إما إلى رفض العلم، كما حصل مع كثير من الأشخاص والجماعات حين رفضوا نظريات وأشياء علمية قد أصبحت أصح ما وصل إليه العلم في تلك المجالات معينة، كرفض نظرية التطور ورفض كروية الأرض أو صعود البشر إلى القمر أو وجود مئات الملايين من المجرات، إلى غير ذلك. وكان سبب هذا الرفض أن تلك النظريات أو الاكتشافات والإنجازات العلمية تتعارض مع النص نفسه. وكان بإمكانهم تفادي هذه المشكلة لو قالوا إن النص مقيد لا مطلق، وكانوا حينها قد تفادوا تلك المشكلة.

أو أننا نجد أن فكرة حاكمية النص تؤدي إلى فكرة تأويل النص وحرفه عن معناه وسياقاته، كما حصل عند جماعة أخرى؛ إذ إن هناك فئة وجدت أن النص بظاهره

يتعارض مع العلم، والعلم صحيح، وبالتالي يجب تأويل النص لكي يتلائم مع العلم. فأوّلت تلك النصوص ولكنهم حملوها معاني هي ذاتها لا تحتملها، وبالتالي انحرف النص عن معناه بالكلية لجعله يوافق العلم، مما أدى إلى ضياع وتمييع النص في عملية إخراجه عن معناه. ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد عند هذه الجماعة، بل نتيجة للي عنق النص وجعله يتوافق مع العلم، قالوا إن النص يطابق العلم، وبالتالي فالنص قال بهذه النظرية العلمية أو الاكتشاف العلمي قبل اكتشاف العلم له حتى، وبالتالي فالنص سابق على العلم في مسألة الإنجاز العلمي ذاك، وبالتالي فإن النص معجز، وهناك إعجاز علمي في النص. ومن هنا ظهر شيء اسمه الإعجاز العلمي نتيجة تأويل النص بطريقة تخرجه عن سياقاته، ونتيجة فكرة حاكمية النص نفسها. وكان بالإمكان تجنب هذا العبث لو لم تكن فكرة حاكمية النص موجودة.

فسمة حاكمية النص التي عرفناها وشرحناها نتيجة لها، وجد العقل الديني الإسلامي نفسه في سبات؛ لأن الحاكمية للنص، والنص ثابت كامل، فلا يجوز التفكير خارج سياق النص. وبالتالي اشتغل المسلمون أنفسهم منذ القرن الخامس الهجري في دراسة النص وعلوم النص وما يتفرع عنها، ولم يجري الابتكار والإبداع أو التغيير؛ لأن التغيير يتعارض مع الثبات، ووسم ووصف أي تغيير بالبدعة. ونتيجة لذلك أُميت العقل العلمي في المجتمعات المسلمة، ولم يتلائم العقل الديني مع العقل العلمي نتيجة الاختلاف الشاسع فيما بينهم من جميع النواحي، فاختفى العقل العلمي من مجتمعاتنا وظهر في أوروبا، وساد العقل الديني. إن العقل الديني يرفض العقل العلمي ونتاجه؛ لأنه يرى لنفسه سيادة على كل شيء، ولأنه الأفضل في كل شيء. ولذلك اصطدم العقل الديني الإسلامي مع النتاج العلمي الحديث، ولا يزال يصطدم إلى يومنا هذا. وبالتالي ترفض مجتمعاتنا العلم والنتاج العلمي؛ لأنها ترى أنها تمتلك شيئًا أفضل منه من جهة وهو النص، ونتيجة الاصطدام النص من جهة مع العلم، ونتيجة الفكر الديني الذي يقلل من قيمة الحياة الدنيا ويرفع من شأن الحياة الآخرة، فلا تصبح الدنيا والإبداع فيها غاية، بل تصبح الدنيا مجرد رحلة عبور ووسيلة للوصول للحياة الأخرى. إن العقل الديني، أو الفرد الذي يسيطر عليه العقل الديني، في أمان بجانب نصه الحاكم على كل شيء، ولا يريد أن يخرج من دائرة هذا النص، وبالتالي يصبح العقل كسولاً متخاملاً. وبالتالي يجد صاحب التفكير الديني من الشخص أو من الإنسان الذي يبحث عشرين سنة للإجابة عن سؤال علمي واحد، أو يذهب لاستكشاف الفضاء، أو يذهب الإنسان لكي يصل إلى القمر، أو الإنسان الذي يبحث عن أصل الحياة؛ كل تلك الأمثلة يجدها العقل الديني الإسلامي مضيعة للوقت؛ لأن كل شيء موجود في النص، ولأن الحياة نفسها لا تزن عند الله جناح بعوضة، ولأن العلم الشرعي أفضل من العلم الدنيوي. إن العقل الديني الإسلامي بصيغته الحالية لا يمكنه بأي شكل من الأشكال التصالح مع العلم، ومع

الفلسفة العلمية والمنهج العلمي؛ بسبب بنيته وبسبب فكرة حاكمية النص على العلم.

وها نحن لا نرى ذلك بأم أعيننا؛ فجامعاتنا لا تنتج أي منتج علمي، وعلى مستوى تصنيف الجامعات نحن في الحضيض، وعلى مستوى النشر والبحث العلمي فنحن أقل الناس أو من أقل الناس إنتاجاً، وفي مجال الإنفاق على البحث العلمي نحن في الحضيض كذلك. فلا نحن ننتج علماً أو فلسفة علمية، ولا نتبع المنهج العلمي، ولا نسعى لذلك، ولا نتصالح مع العلم أيضًا.

ونحن في رابطة الإخوة الإنسانيين نريد تأسيس فلسفة علمية، والدعوة إلى اعتناق المنهج العلمي، والى التصالح مع العلم والإنتاج العلمي، والدعوة إلى الاكتشاف العلمي والبحث العلمي؛ لأن العلم هو سبيل النجاة، ولأننا اتخذنا شعاراً لنا "المنهج العلمي في التفكير".

رحلة في تاريخ العلم وعن الفلسفة العلمية

من المثير جدًا أن نبحث عن فلسفة علمية حقيقية وتكون مناسبة للعلم الحديث اليوم. لقد أصبح العلم كل شيء: في الأبراج، في الأقمار الصناعية، في القمر، في الفلك، في الاختراعات الحديثة، في الحاسوب، في المنطق، في الرياضيات، في الضوء، في النظارات، في كل التكنولوجيا الحديثة والبناء والهندسة والآليات الثقيلة. كما أنه من ناحية فلسفية، أو إن ما يهم الفلسفة أكثر شيء هو خاصية جوهرية وقوية جدًا بالعلم، ألا وهي معرفة الحقيقة. إن العلم يبحث عن الحقيقة بمنهج صلب ومنطقي جدًا، ولكن العلماء غالبًا ما يستخدمون هذا المنهج لا شعوريًا أو دون أن يدرسوا هذا المنهج تمامًا، إنما يتعلمونه بالعادة وذلك تفرضه عليهم طبيعة عملهم. لنقل مثلاً الفيزيائي، في خلال دراسته بالجامعة لا يدرس شيئًا اسمه المنهج العلمي أو آلية التجربة أو ما إلى ذلك، إنما من خلال عمله ودراسته النظرية والتجريبية تفرض عليه أن يتعود على هذا الأسلوب من التفكير، وهذا الأسلوب من صنع التجارب واستقرائها. وكذا في علم النفس والإحصاء والرياضيات والمنطق. لقد دأب الفلاسفة منذ زمن ليس ببعيد، أي منذ قرن أو قرنين، على البحث أو إيجاد فلسفة تناسب العلم في تطوره وتغيره، وقد ظهرت العديد من المحاولات والمذاهب الفلسفية التي تدعي أنها علمية على مدى القرنين الماضيين. فالظاهراتية التي أسسها إدموند هوسرل، والماركسية، والوضعية، والبوبرية (أي من كارل بوبر) كلها تدعي أنها فلسفة علمية، أو لنقل الفلسفة التي تناسب العلم الحديث. ولكن، ومع تغيرات العلم المفاجئة والكبيرة، والتي قد منها ما يزعزع بديهيات العقل كميكانيكا الكم مثلاً، ومنها ما

يجعلك تقترب من اللاحدية مثل الأخطاء القياس والكيانات غير المحددة في العلم، كتلك الكيانات التي تدرسها النيوتروسوفي. إن إيجاد فلسفة علمية ليس بالأمر السهل ولا هو بالأمر اليسير ولا كلمة تقال، بل تحتاج أولًا وأخيرًا خبرة طويلة وباع طويل جدًا في العلم، وذلك لأنك لا تستطيع دراسة شيء لا تعرف عنه شيئًا. لذلك نجد في كثير من الأحيان أن مؤسسي الفلسفات العلمية إنما كانوا علماء في الأصل، كمثال: كارناب فيزيائي، وريشنباخ فيزيائي، وشليك فيزيائي، وبوانكاريه رياضي وفيزيائي، وبرتراند راسل رياضي، وماخ فيزيائي، وإدموند هوسرل عالم رياضيات في الأصل، وكارل ماركس اقتصادي أو لنقل عالم اقتصاد. لذا، وبعد بحث طويل جدًا في العلوم، أو في علم محدد لنقل، يستقرأ بعض العلماء فلسفيًا من خلال عمله وأسلوبه في البحث النظري والعملي، آلة العلم بما يسميه المنهج العلمي. ولكن هناك بعض العلوم، لنقل علم النفس، قد أخذ بالمنهج العلمي المستقرأ قبل أن يكون علمًا، لذلك ظهرت أزمة في القرن العشرين هو فصل علم النفس عن منهج الفيزياء، كذلك الذي يقيس كمية الإحساس وكمية الذكاء وما إلى ذلك. إن أكثر ما يخطر على بال الفلاسفة في المنهج العلمي هو الفيزياء. لدى الكثيرين أن منهج الفيزياء هو منهج يميزه عن باقي مناهج العلوم بحيث إنه يجمع ما بين الاستقراء التجريبي والمحاكاة العقلية والدقة الرياضية. لهذا نجد عند الكثير من الفلاسفة عند استقرائهم منهجًا علميًا ما تجدهم لا يذكرون إلا منهج الفيزياء. وكما ذكرنا سابقًا، علم النفس استعار منهجه من منهج الفيزياء فلم يفلح كثيرًا، أو لنقل كثرت فيه الفرضيات. على أي حال، إننا ذهبنا الآن على أنفسنا بناء منهج علمي صارم، وقد لا نفلح في ذلك. من بين التجارب الكثيرة في البحث العلمي سنختار أبرزها للسهولة، ونرى ماذا استفاد الذين قبلنا من العلم في بناء منهج علمي وفلسفة علمية، وكيف فعلوا ذلك. والذي سأختاره من المحاولات التاريخية والفلسفية لا يعني أنها الأفضل، وذلك يعني أولًا أن مصادرهم متاحة بالنسبة لي، وثانيًا بسبب شهرتها وتأثيرها على المناهج العلمية اليوم، وثالثًا بسبب الصرامة والدقة في مناهج هذه المذاهب التي سأنتقيها للبحث الآن. والمذاهب هي: الوضعية بشقيها الحديث والقديم، أي وضعية القرن التاسع عشر ابتداءً من أوغست كونت إلى دوهيم إلى بنكاريه وكليفورد وغيرهم كثير، ووضعية القرن العشرين أي الفلسفة التحليلية متمثلة بمجمع فيينا: كارناب وشليك وريشنباخ وماخ، دون أن ننسى بالطبع راسل ومور وفيتغنشتاين. ثم مذهب الظاهراتية متمثلة في إدموند هوسرل وباشلر وموريس ميرلوبونتي. وسأختار للدراسة أيضًا الديالكتيك المادي، لا لشيء سوى أن العديد من الأبحاث العلمية توحي بأنها تخضع للديالكتيك المادي، متمثلة بالطبع بكارل ماركس وفريدريك إنجلز، وأهم كتاب سنتدارسه في ذلك "ديالكتيك الطبيعة" بالإنجليزية. على أي حال، سنختار أيضًا مذهبًا ليس بشائع عادةً إنما هو موجود ويعتنقه الكثير

من العلماء، هو مذهب الهوكينجية (أي من ستيفن هوكينج) الذي قال بفكرة موت الفلسفة وعدم الحاجة إليها في وجود العلوم الحديثة. ثم أخيرًا سندرس تفرعتان من هذه المذاهب التي ذكرناها: النيوتروسوفي لفلورنتين سمارنداتشا، ومذهب الاختزاليين في الفيزياء الحديثة. كما إننا سندرس محاولة روجر بنروز في معرفة العالم.

على أي حال، تاريخيًا كان العلم إلى حد ما، لنقل من ناحية تفسيرية، مرتبطًا بالخرافة. فتفسير العالم وظواهره من مطر وحركة الشمس حول السماء واللون الأزرق للسماء وتعاقب الليل والنهار كان يخضع إلى الخرافات الشعبية والمحلية. فهذا الذي يفترض أن الكسوف هو عبارة عن ذئب أتى ليأكل القمر فتضرب الناس على الطناجر، وهذا الذي يعتقد أن الشمس إله أو أن الإله فوق الغيوم. كما عبد بعض الآريين القدامى قوى الطبيعة باعتبارها كمظاهر إلهية. كانت الأمم القديمة تظن أن العالم يعمل بالسحر، وأن السحر ما هو إلا قدرة عجيبة للتحكم بما في العالم. السحر الذي تطور فيما بعد إلى معجزات عند الأديان السماوية. ولكن كان في السحر خاصية تجعله يقترب من العلم اليوم، وهي التحكم في العالم. بينما كان السحر يتحكم في مظاهر الطبيعة من خلال تسخير أرواح شريرة أو طيبة، العلم يأخذ نفس الطريقة ولكن بتسخير أدوات متوفرة ومن خلال معرفة الحقيقة الفعلية للظواهر الطبيعية. فالسحر والعلم كلاهما قائم على نفس الفكرة، هي تسخير ظواهر الطبيعة، ولكن عند الساحر بأداة غير موجودة أصلاً هي الروح أو الجن أو الشيطان أو القوى الما فوق طبيعية، أما لدى العالم فهي أدوات متوفرة وموجودة وملموسة: كالمجهر والحاسوب وأدوات البث الكهرومغناطيسي والمعادن وميزان الحرارة وإلى ذلك. على أي حال، وأيضًا لقد آمن القدماء بفكرة القدرة العجيبة كالمعجزات، وكافة الماورائيات. لذلك نجد آلهة اليونان الذين هم بشر كما تقرأ عن صفاتهم من الطمع واللذة والصراع على السلطة، ولكن لهم قدرات عجيبة فقط. وآلية التفكير هذه من عبادة النار والإيمان بوجود روح خفية في كل مكان، ناتجة عن عجز الإنسان في تفسير جميع الظواهر التي من حوله. أعتقد أن الكثير من المؤرخين يعتمد فكرة على أن الخرافات ظهرت مع الزراعة وازدادت مع ركوب الإنسان للبحر، خلافًا لفراس السواح الذي يرى أن الدين بمعناه الوجداني والروحي قد بدأ مع إنسان نياندرتال (راجع كتاب "دين الإنسان" لفراس السواح). على أي حال، صاحبنا الإنسان القديم هذا يجد من خلال محيطه المألوف أنه باستطاعته دفع عربة أو لنقل صخرة ليست بالثقيلة، ويجد أنه من المستحيل عليه أن يدفع جبلًا أو كهفًا، وبنفس الوقت يجد أن الشمس البعيدة والضخمة تتحرك لمسافات كبيرة جدًا، فيرى أن الأمر إعجازي، أي من العجز عن فعله، أي لا يستطيع فعله الإنسان، وبهذا يعزو حركة

الشمس إلى قدرات خارج عن قدرات الإنسان. فإما أن يقول إن الشمس تتحرك من نفسها، مثلما إن الإنسان يتحرك من نفسه، فللشمس عقل وروح، والشمس تعطينا الدفء والنهار الجميل. كما أن النباتات التي نأكل منها والورود تظهر مع الشمس، أو لنقل من خلال عملية التركيب الضوئي أو ما إلى ذلك، النباتات التي لا تحرم من الشمس بعضها ينمو من خلال الشمس، فيعزو ذلك أيضًا لقدرة الشمس السحرية، مما يؤدي إلى عبادة الشمس لاحقًا. لاحظ أنه أي الشمس لها عقل مثل الإنسان تمامًا، فيستطيع مخاطبتها، والشمس تعطيه النهار والدفء وربما نمو بعض النباتات التي كان الإنسان يأكل منها، فيظن أنها عطاءات من الشمس فيعبدها. وعلى ذلك قس عبادة النار وعبادة الحجارة وعبادة الشجر وما إلى ذلك. ولكن من خلال حياة الإنسان اليومية في العمل والزراعة والصيد، تطور مفهوم الإنسان عن القدرة: القدرة على تحريك الأشياء، القدرة على الحمل، القدرة على الزراعة، القدرة على الري والسقي. فوجد أن الأمور الضخمة الكبيرة كالمطر والشمس والجو والطقس هي أمور تصنع لا بقدرته، فعزاها إلى قدرة عجيبة، أي تسبب للإنسان العجب لأنها لا تخضع للقدرات المألوفة البسيطة الإنسانية التي ألفها في حياته اليومية. وهكذا ظلت آلية تفكير الإنسان منذ القدم وربما إلى اليوم هي إعادة اللامألوف إلى المألوف، على حد تعبير فاينمان. فنحن، على سبيل المثال، نجد أن الكهرباء ودفع المياه في الأنابيب وحركة السيارات في المحرك وآلية عمل الماكينات الضخمة هي مألوفة ومستوعبة، أما الظواهر الخفية الصغيرة مثل مغنطة المغناطيس، ولماذا ليس للضوء أي وزن، فنتعجب عجبًا شديدًا لأننا لا نستطيع تفسيرها . مثلما تخيل علماء القرن السابع عشر والثامن عشر أن الكون عبارة عن ساعة ضخمة مضبوطة، وهذه كانت آلية تفكير لا بلاس، لأنه في ذلك الوقت كانت الثورة الصناعية قد انتهت والماكينات في كل مكان والآليات الضخمة متوفرة: الآلات البخارية في المصانع وفي كل مكان. فأعاد الإنسان ظواهر العالم إلى ميكانيك أشبه بميكانيك الآلات الضخمة التي توجد في المصانع. لهذا نجد أن الكثير من مصطلحات الفيزياء تعود إلى مصطلحات عمل المصانع وربما الأراضي الزراعية، كالعمل (Work)، والاندفاع (Potential)، والقوة (Force)، والطاقة (Energy)، وتحولات الطاقة من الطاقة الكهربائية إلى الحرارية إلى الكيميائية وما إلى ذلك، كلها جاءت من خلال المصانع والقطارات في ذلك الزمان، كالقطارات التي تحول حرق الفحم إلى حركة، والطاقة التي تحول مثلاً الطاقة الكهربائية أيضًا إلى حركة، أو الحركة كما في الأنابيب التي تتحول إلى حرارة كما في البرادات مثلاً. كل هذه الأمور أصبحت مألوفة لدى الإنسان في ذلك الوقت، فأراد أن يفسر الكون كله على أساسها. ولكن تبين في نهاية القرن التاسع عشر أن العالم لا يعمل هكذا، حيث اصطدمت الوقائع التجريبية لدى أشعة الجسم الأسود مع المعادلات النظرية. فبدأت افتراضات رايلي

وجينز في تفسير المعطيات التجريبية للجسم الأسود ولكن بناءً على طريقة التفكير الكلاسيكية، أي تشبيه الكون بآلة وإله عملاق. حتى لم ينجح نموذجهما في تفسير طبيعة إصدار وامتصاص الجسم الأسود. لهذا، ومع افتراض بلانك أن طاقة امتصاص وإصدار الجسم الأسود هي مكممة، أي تأخذ قيمًا محددة من الطاقة، وليست قيمًا مستمرة، وهي كانت طريقة تفسير غير مألوفة في ذلك الوقت، لأن العلماء اعتادوا تفسير امتصاص الضوء وإصداره على الضوء نفسه الكلاسيكي الذي ندركه، حيث إن الضوء نجده مستمرًا ولا نجده متقطعًا. أما بلانك فقد افترض هذا الافتراض من أجل الإصلاح الرياضي. لهذا ففي الرياضيات دقة وحقيقة أكبر مما قد نجده في حياتنا المألوفة. وكذا آينشتاين عندما اكتشف نظريته النسبية كان يحل تناقضًا رهيبًا جدًا بين حركة الشحنات وقوانين نيوتن الكلاسيكية، ولأنه يريد تفسير تجربة مايكلسون-مورلي التي أثبتت على أن سرعة الضوء ثابتة أيا كانت حركة مصدر هذا الضوء أو حركة الجسم بالنسبة للضوء. وهذه التجربة كانت خلافًا للمألوف والمعقول بكل ما تعنيه الكلمة، بحيث إننا إذا كان لدينا سيارة سرعتها (س) ورمينا كرة سرعتها (ز) فإن أي شخص خارج السيارة سرعة الكرة بالنسبة له هي (س + ز)، ولكن إذا افترضنا أن هذه الكرة هي ضوء، فإن سرعة الكرة هي (ز) سواء تحركت السيارة أو لم تتحرك. لهذا، يومًا بعد يوم يثبت العلم بمنهجه الصارم الرياضي والتجريبي أنه لا يمت للمألوف بصلة، وأن المألوف الإنساني، المحيط المألوف الإنساني، ما هو إلا تقريب للحقيقة الفعلية. لهذا يختلف العلم عن الخرافة: منهج الخرافة يعتمد أساسًا على تفسير الظواهر غير المألوفة بناءً على المألوف، ربما حتى يتصورها ويستوعبها الإنسان. ويزداد الأمر في الخرافة عندما تصبح طقسًا، أي صنع أفعال من عند الإنسان من أجل أن يؤثر في هذا العالم بناءً على المعتقد الخرافي. أما العلم فإنه يتخذ نفس الطريقة ولكن بصورة مختلفة: بدلًا من الخرافة يفسر العلم العالم بناءً على الوقائع التجريبية الملموسة من خلال الأدوات التي توصلنا إلى ذلك، مع وجود الرياضيات في بعض العلوم كالفيزياء والحاسوب. كذلك تزداد المعطيات دقة وأقرب للحقيقة الفعلية أكثر فأكثر. وبهذا نعرف كيف العالم يعمل، وبناءً على هذا نستكشف تقنيات ونقوم باختراعات بدلًا من الطقوس والسحر الذي كان يمارسه القدماء. فبدلًا من الخرافة علم، وبدلًا من الطقوس التقنية واختراع. ومنهج الإنسان في ذلك وسلوكه الذي ينتج عن الحاجة والفضول والضرورة تضطره أن يقوم بهذا المنهج، أي معرفة ثم فعل.

على أي حال، فأجوبتنا هذه قد تبدو داروينية أو مادية للغاية، بحيث إننا عللنا العلم إلى حاجة الإنسان وضرورة بقائه في هذا العالم. ولكن للحقيقة، فالعلم ظهر عفويًا دون نقد ومنهج ودون فلسفة أساسًا، ولكن ظهرت الفلسفة فيما بعد. والظهور العفوي للعلم في التاريخ وانفصاله عن الخرافة، والجهود الجماعية التي تبذل في كل زمان

ومكان، يجعل لنا ميلًا نحو تفسير ظهور العلم من خلال الواقع الاقتصادي والظرف الزماني، ومن خلال العفوية الاجتماعية بسبب الحاجة وضرورة البقاء على سطح هذا الكوكب. مثلاً علم الفلك بدأ من أجل عند الفراعنة من أجل تغيرات أوجه القمر لقياس فيضانات نهر النيل، ومن أجل المحاصيل الزراعية ومواسم الزراعة. وكذلك الجغرافيا بدأت بسبب الملاحة وطرق التجارة. وعلم الاقتصاد خرج أساسًا من أجل المعاملات التجارية والضرائب والخراج والمكوس. والعلوم الصناعية كما نعلم ظهرت لحاجات الإنسان في الاستخدام اليومي والحياة والتجاري، كصناعة السلاح والعربة والعجلة، واكتشاف النار والطاحون للغذاء والأواني والصحون، وبناء المنازل، وشق الأنهار للري والساقية، وتذليل الدابة والحيوانات لخدمة الإنسان، وترويض الكائنات الحية، مع اكتشاف الزراعة والنباتات وتقنيات الزراعة. كلها أدى ظهورها بسبب حاجات الإنسان اليومية وضرورة بقائه على هذا الكوكب. كما نرى تاريخيًا في العلم ظهر بسبب الحاجات الاقتصادية والمادية لدى الإنسان، ليس لأن هناك فلسفة أدت إلى ذلك، هذا أولاً. وثانيًا، حتى العلم النظري، أي ضرورة فهم العالم، إنما خرج من المعابد والسحر. فمثلاً كان صابئة العراق يعبدون الكواكب ويظنون أن الكواكب تدل لهم الرزق، والفراعنة كانوا يعبدون الشمس، والعرب كانوا يعبدون القمر، وكانوا يظنون أن الشفاء يأتي من خلال السحر. وتجذرت هذه العقيدة لدى المسيحية باعتقادهم أن زيت الكنيسة يستطيع الشفاء من أي شيء. فبضرورة الشفاء، ومن أجل تحصيل محاصيل الزراعة، ومن أجل العبادة في المعابد، وكما قلنا إن السحر والمعجزات كانت من أجل تسخير ظواهر الطبيعة لخدمة الإنسان، فشرع الفراعنة في دراسة الكواكب، وصنع الهنود والمايا والأزتك في الأمريكتين خلطات دوائية من أجل ذلك. فمعرفة طلاسم السحر واسترضاء الأرواح الشريرة كالجن والشياطين، وظهور طبقة كهنوت في المعابد يستخدمون السحر ويتواصلون مع الآلهة والأرواح من أجل حماية المنطقة من الفيضانات والكوارث والأمراض، ومن أجل أن تذر لهم الأراضي الزراعية محصولًا أكبر. فكما نرى، العلوم النظرية ظهرت من أجل حاجة الإنسان إلى الرزق والأمان والطب، أي باختصار كل ما يمت بصلة في بقاء الإنسان حيًا على هذا الكوكب. وبالطبع الإنسان القديم لم يكن يدرك ذلك، ولكن بصورة عفوية وضرورة بيولوجية أدت إلى ذلك. ومع مرور الزمان وتغيرات الأحوال شيئًا فشيئًا، بدخول العصور الوسطى وتطور الأديان من الوثنية إلى التوحيدية، أدرك الإنسان أن السحر المباشر لا يجدي نفعًا، وبدأت الشكوك. والعلوم النظرية أساسًا مع السفسطائية، وحتى هؤلاء لم تكن جدالاتهم وشكوكهم وعلومهم النظرية بسبب فلسفة ما، وإنما طبيعة عملهم كمجادلين ودعائيين ومحامين أدت إلى البحث النظري والشك المكثف. وسقراط هو الذي ابتدأ فكرة العلم من أجل العلم كما

نعرفها اليوم، لأن الحكماء الذين كانوا قبله، كونفوشيوس كان يركز على الأمور العملية في الحياة أكثر، وبوذا، التي أدت تجربته الدينية وإدراكه أن كل الطقوس والعبادات الخرافية التي كانوا يمارسونها الهندوس لا تجدي نفعًا، فصنع حياة روحية مناسبة، أعتقد أنها مناسبة للواقع العملي وللحياة الشخصية على حد سواء، دون أن يربطها بخرافة أو معتقد.

على أي حال، نعود إلى سقراط. سقراط ربما لسبب أو لآخر درس الفضيلة والرذيلة كمفهومين مجردين، وأعتقد دراسته هذه بسبب إصلاح الأخلاق الذي بدأ يفسد في تلك العصور لدى اليونان من خلال الطمع والشهوة والاقتتال على الأموال والاستعباد، فظن أنه بهذه الطريقة سيكون العالم أكثر سعادة وإشراقًا. وأفلاطون الأرستقراطي كانت من طبيعته وطبيعة الأرستقراطيين في زمنه، الذين يحكمون قطعًا كبيرة جدًا من الأراضي وتحته العبيد وتأتيه الأموال بلا جهد ولا تعب، فيتفرغ إلى هذه الكليات والفضيلة الخالدة والمفاهيم المطلقة التي صنعت له هذه العقلية الأفلاطونية. على أي حال، صارت لعبة التفسيرات والعلوم النظرية لعبة فلاسفة اليونان، فمنهم بدأت الفلسفة والرياضة، على حد تعبير راسل. ثم فيما بعد، مع فتوحات الإسكندر، انتقلت فلسفات ونظريات اليونان إلى كل العالم القديم برمته. ومع مرور الزمن اتخذها الرومان، خصوصًا الفلسفة الرواقية العملية، والبعض اتخذ الفلسفة الكلبية والأبيقورية وما إلى ذلك. فأصبحت نظريات أولئك ومذاهبهم في الأخلاق والمعرفة معروفة لدى العالم القديم شرقه وغربه. ومن هنا ابتدأ العلم النظري في الظهور، ومن خلال الجدالات التي كان يدخلها المسيحيون القدامى مع الوثنيين ومع الفلاسفة، وبضرورة استخدام ألفاظ محددة وحجج قاطعة والبحث عن استدلالات، تطور العلم النظري من خلال المنطق والجدال والاستدلال أكثر فأكثر. وهذا بالطبع موروث من اليونان بسبب الجدالات التي بدأها السفسطائيون بطبيعة عملهم، ثم انتقلت إلى الرفاهية لدى الأرستقراطيين اليونان. وتطور الجدال شيئًا فشيئًا إلى أن بلغ علم المنطق لدى أرسطو طاليس، والذي استعار بعض مفاهيمه طبعًا من كتاب الهندسة لإقليدس، كتسمية أشكال قياس بالأشكال، وذلك لأن أفلاطون بحكم طبيعته الكلية والمطلقة كان يعشق الدقة والصرامة التي كانت لدى كتاب إقليدس. على أي حال، بسبب هذا الموروث الجدالي، استخدم هذه الأداة المسيحيون والوثنيون والفلاسفة في العالم الروماني القديم، وانتقلت بسبب فتوحات الإسكندر إلى العالم الفارسي كذلك، كما يدل على ذلك كتاب "كليلة ودمنة" لابن المقفع. وكذلك كما نجد عند أغسطينوس شيئًا من فلسفة الأفلاطونية الحديثة وبراعة في الجدل الأرسطي والأفلاطوني الموروث. ولكن بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية بسبب البرابرة، انتقل ثقل الحضارة الغربية إلى الشرق، أي إلى بيزنطة

والقسطنطينية وبلاد الشام . ومع اضطهاد هيراكليتوس ومن قبله ومن بعده الطوائف

المسيحية الهرطوقية كالنصارى السريان، هاجر أولئك وافتتحوا مدرسة في بلاد فارس بما كانوا يحملونه من ثقافة يونانية وجدال أفلاطوني ومنطق أرسطي، مستفتحين بذلك مدرسة نصيبين. ثم، وبوجود مكاتب كبيرة يشرف عليها الملوك والأثرياء للترفيه أو للجدل أو بسبب المناظرات بين الطوائف المسيحية المختلفة في فهم طبيعة المسيح، أو بين المدارس الفلسفية المختلفة التي استمرت قرونًا معينة ثم أغلقت بسبب اضطهاد الملك الإمبراطور جستنيان، حيث أغلق الأكاديمية الأفلاطونية والمدرسة المشائية التي أسسها أرسطو والمدرسة الرواقية والأبيقورية، حيث هربت بعض المدارس الفلسفية وبعض الفلاسفة كأسيمبليكيوس إلى بلاد فارس هربًا من الاضطهاد الديني الذي مارسه جستنيان.

على أي حال، ومع ظهور الخلافة الإسلامية كإمبراطورية عظمى تصارع الفرس والروم، وامتدادهم من شبه الجزيرة الإيبيرية إلى الصين في أواسط آسيا، ومع دخول الترجمات في أيام جعفر المنصور وهارون الرشيد والمأمون على يد قسطا بن لوقا وحنين بن إسحاق وثابت بن قرة وعباس بن فرناس، عرفت الأمم الشرقية تحت مظلة الإسلام أكثر الرياضيات اليونانية متمثلة بإقليدس وغيره، والفلك اليوناني متمثلًا ببطليموس، والفلسفة اليونانية خصوصًا أرسطو في منطق اليوناني وعلم ما بعد الطبيعة وعلم الجدل، والتاريخ اليوناني كذلك، والطب اليوناني من خلال جالينوس. وعرفوا الرياضيات الهندية التي أدخلها الخوارزمي عن طريق إبراهيم الفزاري، وأيضًا بعض علوم الفلك الهندي والفارسي. فأصبحت الحضارة الإسلامية بذلك ملتقى الثقافات والأديان والأعراق المختلفة. وبسبب هذا الالتقاء احتاج المسلمون خصوصًا والمسيحيون من بعدهم في تلك المناطق إلى التمكن من هذه العلوم كثقافة عصر، وللصياغة أدلة أقوى من أجل الجدل، وهو كما يعتقد البعض سبب دخول المعتزلة في هذه العلوم العقلية، حيث كانوا يناقشون الدهرية (أي الملحدين) في ذلك الزمان وأصحاب تكافؤ الأدلة والطبيعيين وغيرهم، حيث كان لأولئك الملحدين والزنادقة وكافة الأعراق والأديان والثقافات المختلفة مستقر ومقام طيب في هذه الأرض الشاسعة التي تتميز بحرية الفكر بزمن المأمون والأمين وهارون رشيد وجعفر المنصور، أي قبل أن يقوم المتوكل بعد قرنين أو قرن من الزمان بتلك الحملة الشرسة ضد الفلسفة والفلك والعلوم الطبيعية والطوائف الأخرى.

على أي حال، لقد تعلم المسلمون علم المنطق والرياضيات والفلك، وبذلك دخلت العلوم النظرية إلى العلوم الإسلامية. ومع ظهور علم التجريب على يد جابر بن

حيان والكندي والزهري وثابت بن قرة وعباس بن فرناس، ظل التجريبي بجانب النظري، وهناك من اندمج بينهما، لنقل كابن سينا والرازي. وبسبب الجدالات بين المتكلمين (المعتزلة منهم والأشاعرة) ومع أهل الكتاب من المسيحيين الملكيين واليعاقبة والنصارى، ومع اليهود الذين كانوا تحت مظلة الخلافة الإسلامية، وبسبب كثرة الفرق وظهور الحركات السياسية كالزنج والقرامطة، أخذ الجدال منحى سياسيًا، فاهتم به الأمراء والخلفاء والناس عموما. وبذلك علق علم المنطق وكافة العلوم النظرية والدينية شأنًا بعيدًا. واستعار بعض علماء الدين كالشافعي دقة المنطق والرياضيات وصرامته وطبقه على علم الشريعة، مستنبطًا بذلك علم أصول الفقه، ومستعيرًا بعض مصطلحاته كالقياس، وربما أبو حنيفة هو الذي أدخل بعضًا من ذلك قبل الشافعي باعتماده القياس والاستحسان وما إلى ذلك. فيما بعد، أبو حامد الغزالي من أوائل رجال الدين الذي اعتمد المنطق والعلوم التي وصل إليها عصره في الجدالات والحوار، حتى ألف كتبًا متخصصة في ذلك من غير جدال أو مناظرة، كـ"معيار العلم" و"فن المنطق". وبسبب هذا التنوع الثقافي والكتب الكثيرة، ازدادت العلوم النظرية وقويت وكثفت بشكل غير معقول في تلك الفترة. ومع ظهور التصوف بجانب الدهرية والطبيعية وأصحاب تكافؤ الأدلة والمتكلمين من معتزلة وشيعة وباطنية وأشاعرة وما إليهم، وأهل حديث، وأهل كتاب كاليعاقبة والملكيين، وبعض متكلمين اليهود كموسى بن ميمون، وانتشار كتبهم الطبية والعلمية، وأبحاث الرياضيات والكيمياء، قد اتخذ العلم النظري شكلًا قويًا ومنهجًا عفويًا، دون أن يكون هناك علم كامل أو شامل، إنما كانت أبحاث جزئية فقط، لم تكن علوم كاملة قد استقرت. وبعد انهيار الحضارة الإسلامية وحرق المكتبات، كمكتبة قرطبة التي أحرقها القشتاليون، ومكتبة بغداد التي أحرقها المغول، وانتصار التيار الديني المتشدد في الحضارة الإسلامية، وقتل الفلاسفة والمعتزلة وأصحاب ذوي التفكير العقلي، وظهور إمبراطوريات ديكتاتورية ذات صبغة دينية كالصفويين في بلاد فارس والعثمانيين في وسط آسيا وبلاد الشام، وسقوط الأندلس بيد القشتاليين بافتتاحهم محاكم التفتيش واضطهادهم المسلمين، قد تراجع الشرق وغابت شمسه ومات أهله وعم الجهل وعم الخراب، حتى أشرقت الشمس من جديد في غرب العالم، أي العالم الغربي، في عصر النهضة في القرن الخامس عشر، بظهور الترجمات اللاتينية للأبحاث العلمية العربية وللفلسفة العربية، وباستعادتهم المخطوطات اليونانية والفلسفة اليونانية، عوضًا عن الثقافة الكاثوليكية الكنسية التي عاشوها في تخلف وظلام لمدة 1000 عام تقريبًا. وبظهور حركات كالإنسانيين والرشديين، وظهور ممالك ذات صبغة علمانية كالممالك الإيطالية، وظهور الحركة البروتستانتية على يد مارتن لوثر وكالفن، التي اعتبرت أن الإيمان في القلب وأن الكنيسة في القلب دون أن يخضع لكنيسة واحدة ديكتاتورية علمانية، مما زاد وعزز

مفهوم الفردية، أدى ذلك إلى ظهور علماء وباحثين وفلاسفة عظام أسسوا ومهدوا إلى حضارة أوروبية غربية عظيمة. فمن دعم عائلة ميديشي في فلورنسا للفنون والآداب والعلوم، إلى المملكة الهولندية المنفتحة التي رعت الفلاسفة كسبينوزا وديكارت، إلى المملكة البريطانية التي توحدت تحت مظلة آل تيودور بسبب امتلاكهم المدفعية، وبسبب الجغرافيا وكثرة السهول والسهولة مما عزز التواصل بين الدول الأوروبية وسهل انتقال الكتب والأبحاث بين هذه الدول. وكانت هذه الحضارة متحدة، وكان السبب وحدتها الحروب الصليبية القديمة، بحيث كانت تتوحد الممالك الأوروبية والإقطاعيات تحت مظلة الكنيسة الكاثوليكية لتحرير بلاد الشرق من المسلمين الكفار، كما كانوا يسمونهم. وبسبب كثرة الحروب في القرن الخامس عشر، وظهور النهضة الأدبية والفنية والعلمية في القرن الخامس والسادس عشر، ظهر فلاسفة وأدباء وكتاب ومخترعون كثر، أبرزهم إسحاق نيوتن مؤسس الفيزياء الحديثة، وجاليليو من قبله، ثم نموذج كوبرنيكوس الذي استعان بابن الشاطر، وأبحاث كيبلر الذي حاربته الكنيسة بقوة. ثم ظهور رينيه ديكارت، أبو الفلسفة الحديثة، الذي فصل الفلسفة نهائيًا عن السلوك المدرسي الأسكولائي الذي كان يردد نفس المقولات ونفس المنهج الأرسطي أو لنقل التوموي من توما الأكويني طيلة قرون، بحيث إن ديكارت ابتدأ بالشك وبناء المعرفة من الصفر. وكانت هذه الفكرة جديدة جدًا في ذلك الوقت: فبناء منهج معرفي من الصفر ورمي كل المقولات والأشياء التي تربى عليها الإنسان وابتداء من أشد المقالات وضوحًا، كما عبر عنه ديكارت في كتاب "مقال في المنهج" و"مبادئ الفلسفة"، كانت بالفكرة الثورية آنذاك. فاستفتح ديكارت عهدًا جديدًا من الفلسفة التي تبني منهجًا صارمًا من التساؤل الذاتي ليس بالمقولات الجاهزة، وبالشكل الرياضي، وابتداء من مقدمات واضحة جدًا، حتى يصل الإنسان إلى حل أكبر الألغاز وأصعب الإجابات في هذا العالم، سواء فيما يخص الكون أو فيما يخص الإنسان. ومع ديكارت توالت الفلسفات، كظهور سبينوزا ولايبنتز، وكظهور تيار معارض له كتيار جون لوك التجريبي.

وفي ذلك الوقت كانت أوروبا تغزو العالم عن طريق البحر، فاستعمرت العالم. ومع استعمار أوروبا للعالم، واختراع السفن الحديثة والمدافع والأسلحة الثقيلة، صنعت بذلك تجارة عالمية، كطريق الهند التي كانت بريطانيا تؤمنه، وإفريقيا التي استعمرتها فرنسا، والأمريكتين التي استعمرتها إسبانيا وهولندا وبريطانيا وفرنسا. أدى ذلك إلى نمو طبقة برجوازية من خلال التجارة العالمية، وبسبب ظهور الأموال وتطور الصناعات في الثورة الصناعية، تقدم العلم النظري والفلسفات تقدما رهيبًا، أولًا بسبب الحاجة الصناعية، مما أدى إلى زيادة الدراسة في العلوم الطبيعية كالفيزياء والهندسة الميكانيكية والهندسة المدنية لبناء السكك وشق الطرق، وبسبب حاجات الميكانيك والتقنيات والآلات، تطورت الفيزياء، وبسبب تطور الفيزياء

تطورت معها الرياضيات، فظهر علم التحليل وعلم الهندسة والمتتاليات والعقد وما إلى ذلك. وبسبب تعقيد وصعوبة الوقائع التجارية والإحصائية والاقتصادية، تطور علم الرياضيات كذلك. وبسبب كثرة المصانع وصناعة الأسلحة والأغذية والملابس والقماش، ونمو وقوة التجارة والبرجوازية، تضخمت المصانع أكثر فأكثر. وبسبب نمو الحاجات والتطوير والمنافسة، تطور العلم في القرن السابع والثامن والتاسع عشر تطورًا رهيبًا، حتى بات الإنسان لا يفهم ماذا صنع: فمن المحرك الاحتراق الداخلي الذي صنعه جيمس واط، إلى تجارب أورستد الكهربائية، إلى صناعة ميخائيل فاراداي للمولد الكهربائي البسيط، إلى صناعة فولتا للبطارية. ثم فيما بعد، ومع نمو الطبقة البرجوازية، اصطدمت مصالحهم مع مصالح النبلاء الإقطاعيين الذين كانوا يأخذون الامتيازات بالوراثة، على عكس أولئك الذين نمت ثروتهم من إدارتهم وتجارتهم ومن تعبهم. فلنقل، وبسبب هذا، وبسبب الأزمات الاقتصادية والحروب السخيفة التي كانت تشعل بسبب مزاج الحاكم الديكتاتوري وغباء الطبقة الكسولة (أي النبلاء) في ذلك الوقت، بدأ الناس يتشككون في الكنيسة وفي ميزات الإقطاعيين النبلاء. وبهذا، وبسبب نمو البروتستانتية وحروبهم في كل الغرب الأوروبي، كالحروب التي حصلت في ألمانيا وسويسرا وإسبانيا وبريطانيا، وظهور فلسفات تبدأ من التساؤل كديكارت ولوك وسبينوزا وهيوم، الذين اعتمدوا على العلوم في ذلك الزمان كأبحاث نيوتن وجاليليو وهوك وغيرهم، بدأ الناس يلاحظون التناقض بين النمو الاقتصادي والعلمي والتجاري والفردي، وبين ميزات النبلاء الإقطاعيين والكنيسة التي كانت تفقد ميزاتها شيئًا فشيئًا، مما فجر أخيرًا في ثورة 1789 في فرنسا، الثورة التي أطاحت بالملكية والإقطاعية والنبلاء. ثم بعد حكم روبسبير وحكم اللجنة الخماسية، وظهور نابليون، وبعد حكم المائة عام، انتصر التحالف المقدس وصنعوا نظامًا عالميًا جديدًا، وربما كان هذا أول نظام عالمي على الإطلاق، لكنه رجعي وإقطاعي. وكان سبب ظهوره بالطبع خطر الشعوب، أو لنقل خطر الفلاحين والعمال والبرجوازيين، ضد النبلاء والإقطاعيين في ذلك الوقت، فظنوا أنهم بالميثاق المقدس الذي كتبوه في النمسا وأشرف عليه الرجعي مترنيخ أنهم أطفئوا هذه النار وسيطروا على الوضع. ولكن بظهور الثورة الفرنسية الثانية 1830، اتخذ علم الثورة الفرنسية علمًا رسميًا لفرنسا، وقد حقق الثوار جدًّا بعض مطالبهم. وبذلك انتقلت روح الثورة بسبب الفتوحات القديمة لنابليون وترويجه لفكرة الثورة الفرنسية ومعاصرة الحداثة في ذلك الزمان من حيث حرية الاقتصاد وحرية الأموال والتفكير والعلم الحديث والاختراعات والصناعات الحديثة، بحيث كانت الصناعات الحديثة وحركة التجارة تتطلب نظامًا عالميًا يعتمد على حرية تحرك رؤوس الأموال وقانون يكون مناسبًا لذلك الزمن. وكانت الجماعات الإقطاعية والكنيسة سدًا معترضًا في وجه رياح نمو الصناعة والعلم والثقافة

والأموال في ذلك الوقت. فلم تستطع إيقاف هذا التيار الجارف الذي يأخذ معه كل شيء، وانفجر الوضع تمامًا عام 1848 فيما يسمى بالربيع الأوروبي، حيث انتفضت كل الشعوب الأوروبية في وجه الحكومات الملكية الديكتاتورية والكنيسة والنبلاء والإقطاع، محققين انتصارات في كل البلدان. فتوحدت ألمانيا في سبعينيات وثمانينيات القرن التاسع عشر على يد بسمارك، وتوحدت إيطاليا على يد كافور، وصنعت بريطانيا إصلاحات كثيرة من أجل ذلك، حيث كانت هي رائدة الصناعة والتجارة. ولهذا تعزز المذهب النفعي والتجريبي في بريطانيا شيئًا فشيئًا.

العلم النظري والفلسفات تتغير مع تغير الواقع الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والظرف المادي الذي تمر فيه المجتمعات في ذلك الوقت.

لهذا نجد إن العلم النظري والفلسفات تابعة للظروف في ذلك الوقت. وبسبب سيطرة رأس المال والبرجوازيين على السلطة وعلى كل مناحي الحياة في القرن التاسع عشر (في النصف الثاني منه)، ظهرت الحركات الاشتراكية كروبرت أوين وحزب العمال البريطاني وكومونة باريس 1870 ولويس بلان، ومن قبله شارل فوريه. ومع ظهور كارل ماركس وفريدريك إنجلز بتشكيلهم المذهب المادي الديالكتيكي والمادية التاريخية والأممية الأولى والاشتراكية العلمية كما يسمونها، وظهور الأناركية الشيوعية النقابية على يد باكونين. ثم، بنهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، بدأت الدول الشمولية تنتصر والتكتلات الكبرى تظهر، وعصر القوميات ابتدأ. وبسبب تناقض هذه القوميات في المستعمرات والتضارب في المصالح، ظهرت الحرب العالمية الأولى. والتغيرات العالمية بدأت بمؤتمر باريس للصلح 1919، هو مبدأ ويلسون لحقوق القوميات. ولكن ما إن بدأت أزمة اقتصادية عالمية جديدة للظهور، حتى بدأت الدول الشمولية بالتسلم السلطة، كالفاشية في إيطاليا والنازية في ألمانيا والشيوعية في روسيا. وبسبب أيضًا تناقض المصالح، ظهرت حرب جديدة أدت إلى تعزيز فلسفة السلام والإنسانية مرة أخرى. ثم الحرب الباردة وظهور كتلتان: كتلة شيوعية في الشرق وكتلة رأسمالية في الغرب، حتى نهار التكتل الشيوعي بسبب الديكتاتورية والفساد والدينية والقومية.

ثم بعد انهيار اتحاد السوفيتي، سيطرت الولايات المتحدة على العالم (سيطرة القطب الواحد)، فتوالت الحروب في شرق أوروبا، وفي العراق، وفي سوريا وليبيا والربيع العربي، وحروب أوكرانيا وروسيا وما إلى ذلك.

على أي حال، أظن إننا قد تهنا عن موضوعنا الرئيسي، ألا وهو الفلسفة العلمية. ولكنني سقت هذا التاريخ الطويل لنرى كيف إن الفلسفة العلمية والعلوم النظرية

كانت رهن الظروف الاقتصادية والمادية والسياسية والثقافية إلى حد بعيد. ففي عصر كان يسيطر فيه الإقطاع والنبلاء، كانت فلسفة الحرية والإنسانية هي الرائدة في الأخلاق والسياسة. وفي عصر كانت فيه الصناعات تعتمد على محركات الاحتراق الداخلي والماكينات الكبيرة، كانت الفلسفة العلمية عبارة عن نسخ لهذه الماكنات ولكن بشكل نظري، حيث كان يعتقد أن الكون عبارة عن ساعة ضخمة، والعالم يعمل بقوانين كتلك التي نجدها في مكنات المصانع، كالتحولات بين الطاقة وما إلى ذلك. ثم فيما بعد، ومع نمو الاشتراكية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ظهرت الفلسفات الشمولية التي تجمع بين التاريخ والعلوم الإنسانية مع العلوم الطبيعية، متمثلة في الهيجلية والماركسية وعلم الاجتماع لدى أوغست كونت. ومع دخول القرن العشرين، وتطور العلوم، وظهور فيزياء نسبية وميكانيكا الكم، وظهور القنبلة الذرية، وتطوير أنصاف النواقل وصناعة الترانزستور، وظهور علم البيانات والبرمجة على يد كل من آلان تورينج وباباج، مع المنطق الرمزي الذي استمدوه من بول، تغير شكل الفلسفة النظرية والفلسفة العلمية، متمثلة في ذلك بالفلسفة الوضعية التحليلية، التي كانت انعكاسًا لعلوم ذلك الزمن، حيث تطورت نظرية المجموعات ابتداءً من كانتور وبيانو وفريجه وراسل، وتطورت العلوم إلى ميكانيكا الكم من حيث معادلة شرودنغر ومعادلة ديراك، واكتشافهم الجسيمات كالبروتونات والإلكترونات والبوزيترون، والتطور الرهيب لعلم البلازما والليزر والفيزياء النووية، أدى ذلك إلى ظهور فلسفة علمية تواكب تطورات العصر الإلكترونية والصناعية والعلمية. فنمت مدرستان أساسيتان: أولاً الظاهراتية، التي تعيد كل شيء إلى قوانين أمثلة كالقوانين الفيزيائية، كتلك التي نجدها في الميكانيك التحليلي وقوانين الضوئيات، بحيث إن القانون بحله الرياضي نستنبط شيئًا موجودًا وحقيقيًا وفعليًا في العالم الواقعي. ما أدى إلى تساؤل إدموند هوسرل عن كيفية تنبؤ الإنسان في المستقبل ومعرفة الظواهر قبل أن تقع في التجربة فقط عن طريق المعادلات الرياضية، فقال إن هذه المعادلات الرياضية قوانين منطقية أمثلة لا تخضع لتجربة، إنما عن طريقها نعرف العالم الماهوي، أي العالم الذي لا يقع تحت الحس والتجربة، إنما هو قوانين مطلقة أمثلة يخضع لها العالم برمته، مقولات عقلية ليست موجودة جزئيًا أو بشيء معين، إنما هي مقولات كلية يخضع لها كل جزء في الكون. ثم المدرسة الوضعية، التي ابتدأت مع أوغست كونت الذي اختصر العلوم على الظواهر التجريبية، حتى العلوم التي تخص الإنسان كالتاريخ وحياته وثقافته، مستخدمًا بذلك علم الاجتماع الذي كان مكتشفًا حديثًا. وتطورت مدرسته في القرن التاسع عشر حتى طغت لدى الكثير من الفلاسفة، لنقل دوهيم وبوانكاريه وهرتز وهلمهولتز والكثير غيرهم. ومع تطورات القرن العشرين، وتقدم الفيزياء أشواطًا كثيرة مع الرياضيات، ووجد إن الفيزياء تعتمد اعتمادًا كبيرًا جدًا على الرياضيات

التحليلية والهندسية، فبان بذلك ضرورة وضع منطق يعتمد على نظرية المجموعات

وإبستمولوجيا تعتمد على التجربة العلمية. وبسبب الرعب النووي وتطبيقات الفيزياء النووية في السلاح وتوليد الطاقة، ازداد اهتمام العلماء في طاقة النواة ومركباتها وفيزيائها. وبسبب اهتمام العلماء لمعرفة أصل الكون بعد الانفجار الكبير، والتغيرات التي أضفتها النسبية العامة، ومحاولة الناس معرفة أصل الكون عن طريق الجسيمات الأولية، وتمدُّد العالم، ازداد الاهتمام بالفيزياء النظرية. ولكن، ومع تطور أدوات العلوم كالحاسوب والمجهر والإشعاعات والكسور والمطياف، وتطور الرياضيات رهيبًا جدًا، نجد إن تفسير العالم لا يعود إلى تصوراتنا الضيقة وتفكيرنا الصغير، فالعلم يفرض علينا أن نذهب ونكتشف، لا أن نجلس ونفكر. لهذا، ومع التطور الكبير جدًا للعلم، بحيث أجاب على جميع الأسئلة الكبرى التي لم يكن الإنسان باستطاعته أن يجيب عنها بسهولة، بل كان يلجأ للخرافة أو للنظريات غير المثبتة أو يترك السؤال معلقًا، ولكن بسبب العلم استطعنا الإجابة: أكان الكون له بداية أم لا، أو كيف تنشأ الحياة، أو كيف يولد الجنين، أو كيف تتحرك الشمس، أو الخ. اعتقد جيل ستيفن هوكينج وهوكينج نفسه على أن الفلسفة ماتت ولم يعد لها ضرورة، بحيث إن أي تساؤل نذهب إلى المنهج العلمي والتجارب ونجيب عنه فقط، دون أن نلجأ إلى أي نوع من الفلسفة. ولكن مع الاستمرار في العمل العملي في المخابر، في البحث، نجد إن الأخطاء كثيرة ولها وجود حقيقي وتأثير قوي، مثل الظواهر لا خطية في الضوء، والارتيابات التي تظهر في كل تجربة، والنقاط الشاذة لدى كل رسم بياني، وهامش الخطأ لدى كل أداة قياس، والانحراف ما بين النظري والعمل، وكثرة العوامل التي تؤثر. واكتشاف إدوارد لورنتز لظاهرة أثر الفراشة من خلال الطقس، ظهر إن تلك القوانين التي تأخذ شكلاً خطيًا في الفيزياء ما هو إلا تقريب للحقيقة ولا يمثل الحقيقة الفعلية كما هي. فظهرت نظرية الشواش ونظرية الفوضى والحدود اللا خطية. كما إن الواقع العملي في الدراسات العلمية كدراسة ثلاثة أجسام، ودراسة الطقس، والميكانيك الإحصائي، وجميع القياسات، نجد إن الفوضى والشواش له دور رئيسي جدًا في الظاهرة وتفسيرها. لهذا شيئًا فشيئًا بدأت الفلسفات في دراسة الأمور غير المحددة والغامضة في كل ظاهرة، فبدأت مع محاولة المهندس والرياضياتي الإيراني لطفي زادة باختراعه ما يعرف بدالة الغموض. ودالة الغموض هذه تسمح بانتماء جزئي أو متذبذب للعنصر في المجموعة. ومع ضرورات المنطق الحديث في الحاسوب، مثل لنقل طول رجل 170 سم يكون حد القصر، وأكثر من 170 سم يكون طويل جدًا، ولكن في حياتنا اليومية لا نتعامل هكذا، إنما نقول: ما بين الـ160 والـ170 يكون لا طويل ولا قصير، ما فوق الـ170 طويل، ما تحت الـ160 قصير. لهذا اضطر لطفي زادة

لاختراع اللغة المنطقية توافي الضرورات الحياتية والتجارية والعلمية بشكل أكثر دقة. وكما قلنا، بضرورات المعامل العلمية والمخابر، اضطر الرياضيون وعلماء المنطق إلى اختراع لغة منطقية أكثر تطبيقًا في استخدامات الحاسوب التجارية والعلمية، وأكثر دقة في وصف التجارب المعملية، فظهر بما يعرف بمنطق متعدد القيم، وتطور فيما بعد إلى المنطق النيوتروسوفي، وبلغت أوجهها على يد كل من الروماني فلورنتين مرنداكا والمصري أحمد سلامة، حتى صنعوا بما يعرف بمجال النيوتروسوفي، فلسفة علمية كاملة بحد ذاتها تبتدأ من المنطق، بحيث تقسم كل قضية إلى ثلاثية تحوي قيمة صدق القضية وقيمة كذب القضية وقيمة عدم التحديد في القضية، وطوروها بما يعرف بنظرية المجموعات، ودرسوا فيها وعلم الإحصاء النيوتروسوفي والخوارزميات، والنظريات الصوفية التي لها تطبيقات كثيرة وذات الذكية، بما يتناسب مع الواقع العلمي الحديث.

على أي حال، فإن من خلال استقراء التاريخ الطويل لدى كل العلوم النظرية ومن بعدها الفلسفة العلمية، نجد كما ذكرنا سابقًا على أن الفلسفة العلمية تتبع لتطورات وتغيرات العلم، والعلم نفسه يتبع لتطورات وتغيرات المجتمع والواقع الاقتصادي المادي بما يحمله من تقنيات واختراعات ومعاملات وضرورات، كسباق التسلح والتجارة الإلكترونية وتطوير التكنولوجيا للاستخدامات الصناعية والمنزلية وما إلى ذلك. لهذا، وبسبب الضرورات التي تحيط في استقراء الفلسفة العلمية، لا نريد صناعة فلسفة علمية تأملية هكذا منقطعة عن التاريخ التي توجد فيه، ومعزولة عن الضرورات الاجتماعية التي أدت إلى وجودها. لهذا، لقد رأينا، لكي نصنع فلسفة علمية حقيقية، لابد أن نربطها بالعلم أولًا، وبالمجتمع والظروف الراهنة الحالية ثانيًا، وبطرق العلم الحديثة وواقع العلم النظري والتجريبي اليوم ثالثًا. لهذا ففي كل من محاولات الوضعيين والماركسيين والظاهراتيين وحتى الهوكينجيين، كانت فلسفاتهم تبدو ناقصة بعد مرور أجيال على ظهورها، لأن العلم قد تغير آنذاك، والواقع الاجتماعي والاقتصادي والعلم قد تغير عن تلك الفترة التي ظهرت فيها تلك الفلسفة. فالماركسية تعد منهجًا علميًا لعلوم القرن التاسع عشر سواء الاجتماعية أو العلمية، والوضعية تناسب علوم القرن العشرين خصوصًا في النصف الأول منه قبل أن تتطور علوم فيزياء الجسيمات وعلوم التكنولوجيا البيولوجية والذكاء الصناعي. والفلسفة الميكانيكية متمثلة بلا بلاس تناسب القرن الثامن عشر بعد قرن من الثورة الصناعية وظهور المصانع الضخمة. والهوكينجية التي تقول بموت الفلسفة تناسب النصف الثاني من القرن العشرين، حيث أصبح هناك شرخ كبير بين الفلسفة والعلم، العلم تقدم في كل المجالات بينما بقيت الفلسفة ساكنة على مقولات قديمة. أما اليوم، ومع التقدم الكبير جدًا للعلم في القرن 21، نجد إنه من خلال التطور الكبير للعلوم ومجالاته، بدأت الإجابات الفلسفية تظهر تلقائيًا دون أن

نختارها، بحيث أصبح للفلسفة وظيفة في العلم. مثال: بسبب التكتلات الكبرى في الدول والاقتصاديات الضخمة، أصبح يجب أن يكون هناك فلسفة للاقتصاد، أي توجه إلى أين يجب أن تذهب اقتصاديات الدول الضخمة المتكتلة بعد التخطيط الشامل والأمور التي تفرضها الاقتصاديات الكبرى. وكمثال آخر، مع التقدم الكبير للفيزياء النظرية والنتائج التي تعطيها، قد توحي بأن هناك أكوانًا متعددة، أو إن العالم عشوائي وفوضوي وإحصائي إلى حد كبير، أو إن هناك إلهًا خلق العالم من حيث تفسير لنموذج ستاندرد موديل. وقد تعرضت نظرية الأوتار إلى حل هذا التناقض ما بين ميكانيكا الكم والنسبية العامة، فأعطت إجابات هي فلسفية إلى حد بعيد. ولم تعد نظرية هوكينج بموت الفلسفة صحيحة. أصبح هناك طريقة فهم جديدة يجب أن تكون للمعادلات الرياضية، ويجب أن تكون هناك طريقة فهم واستقراء جديدة للتجارب الفيزيائية وللنتائج النظرية في الفيزياء الحديثة، بحيث إن القراءة التقليدية لم تعد صالحة للفيزياء الحديثة، بحيث إن النظرة الكلاسيكية المعملية الميكانيكية لم تعد تصلح لميكانيكا الكم، ونظرة ميكانيكا الكم كما هي لم تعد تصلح للإلكترونيات الكمومية، والإلكترونيات الكمومية لم تعد تصلح لكوانتم فيلد (أي المجال الكمومي)، وهكذا حتى ستاندرد موديل. ويعتقد العلماء حتى نموذج ستاندرد موديل لم يعد صالحًا للمتناقضات الحديثة، كوجود المادة المظلمة التي لا يعلم عنها العلماء شيئًا، وكتفسير للتمدد المتسارع للكون. وكل تناقض القائم بين ميكانيكا الكم والنسبية العامة التي تعطي نتائج غير منطقية بالمرة. والمصيبة هو إنه عند بداية الكون، كان الكون أصغر من نواة الذرة، أي تنطبق عليه قوانين ميكانيكا الكم، والكون ووزنه الضخم جدًا محصور في هذه المنطقة الصغيرة، ووزن ضخم جدًا يعني تطبيق قوانين النسبية العامة، وهنا في بداية العالم نجد إن ميكانيكا الكم والنسبية العامة سوياً يجب أن تنطبقا وتعطي نتائج غير منطقية. وأيضًا، إن إجراء التجارب بطريقة تقليدية لم تعد نافعة وغير مفيدة ولا تتناسب مع معطيات العلم الحديث، لأنه في التجارب الكلاسيكية الرجل يقوم في التجربة، سواء قام بها أم لم يقم بها، فالمعطيات موجودة، وما مهمة المجرب إلا الكشف عن هذه المعطيات. ولكن أثبتت الفيزياء الحديثة من خلال الميكانيكا الكم هو إن طريقة إجراء التجربة تؤثر على التجربة نفسها. فمثلاً، يكون هناك معطيات قبل قيام التجربة، بعد قيام التجربة سيكون هناك معطيات أخرى بسبب الرصد، يأتي راصد آخر تعطيه معطيات أخرى من أجل هذا الرصد. وهذا أمر لم تعد تفيد فيه جميع الفلسفات التقليدية. وهذا أمر لم تعد فيه حتى إجراء التجارب التقليدية، فالأمر لم يعد كشفًا وحسب، قياسًا وحسب، بل يجب أن نأخذ بعين الاعتبار تأثير الرصد، ونأخذ بعين الاعتبار الفوضى وعدم التحديد في التجربة، وتأخذ بعين الاعتبار الشواش والتأثيرات اللا خطية في التجربة. وفوق كل هذا، أثبت العلم الحديث إن اللامعقولية

حقيقة في العالم. مثلاً ميكانيكا الكم أسقطت الحتمية، بحيث إن أي شيء ما هو إلا احتمالات. وعن طريق نظرية الفوضى والفيزياء الحديثة، وتبين إن العالم يسلك سلوكًا عشوائيًا إحصائيًا، وإن ما نقيسه إلا وسطيات لهذه العشوائيات. كما أثبت إيرفين في ميكانيكا الكم على أن جميع القوانين الميكانيك الكلاسيكي ما هي إلا تقريب لوسطيات مؤثرات في ميكانيكا الكم، وأثبت على إن المسار الحتمي الفيزيائي ما هو إلا مسار محدد من مجموع مسارات احتمالية حذفت بعضها فبقي مسار واحد فقط. ونظرية الأوتار تتنبأ بوجود عشرة أبعاد مجعدة وثلاثة أبعاد ممتدة. وفكرة المكان المجعد أو الأبعاد المكانية المجعدة هي فكرة لا يستطيع استيعاثها التصور البشري، ولا منهجه المنطقي، ولا حتى تجاربه العادية. لهذا نحن أمام مأزق فلسفي كبير: فمن جهة لم يعد المنطق والتصورات العقلية مفيدة لأن اللامعقولية جزء لا يتجزأ من العلم الحديث، والتناسق والاستدلال المنطقي كذلك غير مفيد لأن نظرية الفوضى واحتمالات ميكانيكا الكم أسقطت الحتمية، والتأثيرات اللا خطية أسقطت فكرة قوانين الطبيعة الثابتة الانسيابية، كما أراد هوسرل أو كما اعتقد أوغست كونت وكليفورد قبل قرنين من اليوم. لهذا، مذهب الظاهريات ومذهب القوانين الأمثيلة لم يعد صالحًا للواقع العلمي اليوم. وكذلك المذهب التجريبي، حيث كان يعتقد إن التجربة ما هي إلا وسيلة كشف، ولكن في الفيزياء الحديثة، من خلال تأثير الفوضى والتأثيرات اللا خطية، وتأثير الرصد في ميكانيكا الكم، تبين إن حتى التجربة نفسها قد لا توصل إلى الحقيقة الفعلية قبل القيام بالتجربة. لهذا نحتاج إلى منهج علمي جديد وطريقة علمية للكشف مرة أخرى. أما العلماء، فإنهم اليوم، كالفيزياء مثلاً، يدمجون ما بين المعادلات الرياضية الصارمة والمعطيات التجريبية العميقة جدًا. فهم مثلاً يأخذون تأثير معين لجسيم ما، أو نتيجة معينة لمعادلة رياضية ما، فإذا تطابق فكلاهما، وبالضرورة يعطيان معلومة علمية، ويبنى على أساسها نظرية ما. فالمذهب العقلي والمذهب التجريبي كلاهما غير صالحين لبناء فلسفة علمية اليوم. أما من ناحية المذهب الوضعي، فإنه يفترض على أن القضايا ثلاث: قضية صحيحة (أي مطابقة العالم التجريبي)، وقضية كاذبة (أي مناقضة العالم التجريبي)، وقضية لا معنى لها (تلك التي لا تصدق ولا تكذب بالواقع التجريبي، وإنما هي ناتجة عن أخطاء لغوية). مثلاً نقول: "زيد موجود في المنزل"، بحيث إن الوجود كان في الأصل أداة تأكيد، ولكن أداة التأكيد هذه، والتي هي الوجود، أصبحت عند الفلاسفة من خلال الخطأ اللغوي معنى موضوعي ملموس، مثل الباب الذي تراه أمامك. وبذلك نشأت الميتافيزيقا، كما عند كارناب، على إنها أخطاء لغوية اعتبرت على إنها موجودة فعليًا. لهذا، كارناب ينكر الغيبيات والما بعد الميتافيزيقي، حيث اعتبر إن مفهوم الله هو خطأ لغوي ناتج عن الربط ما بين الظواهر، كما افترضه هيوم من قبله، على إن مبدأ العِلِّيَّة ناتج من التتالي

الزمني للظواهر، فسَمَّى الفلاسفة السابق بالعلة واللاحق بالمعلول، وما الظواهر إلا تتالي حوادث فقط، فالعِلِّيَّة والسببية ما هو إلا تجريد خاطئ عنده. ولكن المشكلة هو إن الوضعيين اعتبروا إن الرياضيات فارغة وتحصيل حاصل، وهو ما لا يبدو عند تطبيقه على الواقع الفيزيائي، حيث إن الرياضيات تلعب دورًا في التنبؤ بالمستقبل، وإعطاء معادلات تفاضلية تصف الظاهرة بدقة، وتعطي للإنسان معلومات حتى وإن لم يقم بتجربة. والكثير من الأمور كُشِفَت من خلال معادلات الرياضيات قبل التجربة بكثير: مثلاً الثقب الأسود نتج كحل رياضي في السابق في النسبية العامة، ومن قبله من خلال افتراض لابلاس. وكذلك الجسيمات مثل البوزيترون خرج نتيجة حل لمعادلة ديراك، ثم بعد عشر سنوات تقريبًا من اكتشاف اكتشف كارل أندرسون عام 1932 البوزيترون تجريبيًا. وكذلك تمدد الكون، فقط عندما حل فريدمان معادلات آينشتاين وتنبأ إن الكون يجب أن يتمدد أو يتقلص، وبعد عقد من اكتشاف آينشتاين، أو اكتشاف فريدمان في معادلات آينشتاين، تبين لدى إدوين هابل في مرصده الفلكي على إن الكون يتمدد، وفسره من خلال تأثير دوبلر، حيث إن الجسم عندما يقترب فإن طيف الضوء الصادر منه يميل إلى الأزرق، والجسم عندما يبتعد فإن طيف الضوء الصادر منه يميل إلى الأحمر. ومن خلال جهاز تحليل الأطياف، وجد فريدمان إن جميع المجرات أطيافها تميل إلى الأحمر، إذا هي تبتعد. وفي عام 1991 اكتشف العلماء إن الكون تمدده يتسارع بدلًا من أن يتباطأ كما توقعوا. واليوم تنبئنا معادلات الرياضيات في الكثير من الأمور، مثل عمر الكون مثلاً (13.7 مليار سنة)، وعمر الأرض، وتنبأ بحوادث ماضية وحوادث مستقبلية. كما إن الطرق التجريبية أصبحت أكثر ذكاءً وأكثر اعتمادًا على الرياضيات. والمعطيات العلمية ليست كلها تجارب مباشرة وتطابق العالم الواقعي أو لا تطابق العالم الواقعي، كما أراد الوضعيون. فنظرية الوضعيين تلغي الكثير من العلم اليوم. وفكرة إن الميتافيزيقا بأجمعها هي عبارة خطأ لغوي أمر غير صحيح، لأن الفيزياء نفسها تذهب إلى قضايا دخلت بها الميتافيزيقا وتذهب إلى مسائل دخلت قبلها الميتافيزيقا، وتأخذ نفس الألفاظ وتحل نفس الحلول. مثلاً مشكلة العدم، فالعدم قد اعتبر الكثير من الفلاسفة كبرغسون، وربما الوضعيون من بعده، على إن مشكلة العدم هي مشكلة لفظية (مشكلة العدم والوجود). ولكن في العلم، العدم له معنى موضوعي ووجود حقيقي، وقد أثبت على إن الجسيمات توجد نفسها من عدم، وهو ما قد تم إثباته في الرياضيات قبل التجربة، بحيث إننا إذا نظرنا إلى شرط هايزنبرغ في الارتياب، أو قانون عدم اليقين لهايزنبرغ، نستنتج رياضيًّا على إن الجسيمات توجد نفسها من عدم ثم تفني نفسها مرة أخرى. فيما بعد أثبت هنريك كازيمير بالتجربة على إن هذه الجسيمات التي توجد نفسها من عدم موجودة وحقيقية وذات تأثير فعال، من خلال وضع لوحين بينهما مسافة صغيرة جدًا، بحيث تنشأ جسيمات

خارج اللوحين أكثر من الجسيمات داخل اللوحين (وهذه الجسيمات تنشأ من عدم طبعًا)، فينشأ ضغط على الوجهين الخارجيين للوحيين مما يؤدي إلى انطباقهما، بحيث يكون الصندوق اللذان يوجد بهما اللوحان مفرغ من الهواء تمامًا. وقد أثبتت التجارب ما تنبأت به معادلات هايزنبرغ من قبل هو إن هناك جسيمات تنشأ من عدم ثم تفني بعضها. وهو أمر ما لم يكن يتخيله الفلاسفة في العصور الوسطى، بل وفي القرن السابع والثامن والتاسع عشر. وهو ما لم يكن يتخيله المتكلمون والعقليون، بل حتى التجريبيون من قبل، بحيث إن الإيجاد عن عدم، أو إيجاد الجسيم نفسه عن عدم، كانوا يعتبر ضربًا من اللامعقولية وضربًا من الجنون، وكانت أي نظرية تؤدي لنتيجة إن الأجسام توجد نفسها من عدم تعتبر باطلة. لا تذهب بعيدًا، فإن ميكانيكا الكم أثبتت إن الجسيم يمكن أن يوجد في مكانين بنفس الوقت. وتأثير التشابك الكمومي الذي دلنا على فكرة على إن أي تأثير على الجسيم الأول يؤثر على الجسم الثاني آنيًّا، وحتى وإن لم تكن هناك وسيلة تواصل بينهما. وقد نصل إلى تقنية نقل الأجسام من مكان إلى مكان دون قطع المسافة بينهما، وهو ممكن علميًا حتى وإن لم يكن ممكنًا عقليًا. وهنا ينطبق قول فاينمان: "إذا كانت ميكانيكا الكم تناقض العقل، فأنا أقبل على إن الطبيعة تناقض العقل". فالعالم لا يسير بقوانين عقولنا الضيقة، ولا يخضع لمألوفنا الصغير وعالمنا الضيق. لذلك، المطلوب من أي فلسفة علمية اليوم هو أن تكون مرنة ومطاطية، لا تخضع لأي مرجعية، سواء التجربة أو العقل، أو حتى أي منظومة منطقية، أو حتى أي منهج. لأن أي منهج سنضعه، وأي منطق سنضعه، أو إذا اعتمدنا فقط على التجارب المنفصلة، فإننا لن نصل إلى شيء، لأن الزمان يتغير يومًا بعد يوم، والعلم يتغير أيضًا. فإي منهج سنضعه سنكون أبناء الظروف الحالية حتمًا. ولا نريد أن نكرر أخطاء الذين من قبلنا. وكذلك لا يعني أيضًا أن نصبح مع ستيفن هوكينج ونقول بموت الفلسفة، لأن الفلسفة تفرض نفسها علينا من خلال عملنا في العلم. كذلك لا نكون أيضًا أن نلغي جميع المناهج الكلية التي تربط بين ميادين العلم المنفصلة، بحيث يوجد هناك ترابط بين العلوم المنفصلة أكثر من أي وقت مضى: فالظواهر البيولوجية في الخلية أصبحت تدرس الآن على ضوء المنظومات الترموديناميكية اللا توازنية (أي الديناميكا الحرارية اللا توازنية). وأصبحت هناك فروع في الجامعة تدرس الرياضيات للخلية والفيزياء الكيميائية والحرارية للخلية. واتضح إن البيولوجيا لها قوانين فيزياء خاصة بها. وتبين إن معظم الظواهر النفسية تعود إلى الخلايا، إلى الحمض النووي، إلى السلوك الهرموني، بالإضافة إلى الحوادث اليومية. وهو ما يربط علم النفس أيضًا في الفيزياء. وأصبحت الأمور شائكة ومعقدة أكثر من أي وقت مضى. فأي فلسفة علمية ذات مبادئ بسيطة ومختزلة هي طبعًا ليست بصالحنا. فهناك في العلم ما يوحي أنه عقلي، وهناك ما يوحي أنه تجريبي، وهناك

ما يوحي أنه فوضوي، وهناك ما يوحي أن الشواش والعشوائية موجودة، وهناك ما يوحي أن الكون يخضع إلى قوانين ثابتة، وهناك ما يوحي أنه يخضع لقوانين إحصائية، وهناك ما يوحي أن رصد الإنسان وطريقة تجربته سبب في هذه الظاهرة. وهناك وهناك وإلى... ومهما استقرأنا من العلم، لا نستفيد إلا جمع معطيات فقط بأن العلم اكتشف كذا وأعطى كذا. هنا ننقلب من فلاسفة علم إلى صحفيين. لهذا، من واجبنا أن نوجد فلسفة علمية تفرضها الضرورة، لا أن نتخيلها نحن. أما عن إيجاد منهج كلي لكل العلوم وللعلم عامة، ومنطق عام مفيد وحقيقي للعلوم وللحياة برمتها، وفلسفة علمية كاملة شاملة، فهو لا أعرف إن كان سيوجد أم لا. والمطلوب اليوم من الفلاسفة المختصين في العلم، أو لنقل من العلماء المتخصصين الذين يهتمون في الجوانب النظرية والإجابات الفلسفية التي تفرضها البحوث العلمية، وبناء منهج مما قد خبروه من عملهم الأكاديمي والمخبري. لهذا فاعتقد إن الفلسفة العلمية تحتاج إلى جهود جماعية من علماء من شتى الاختصاصات. واليوم، في كل ميادين العلم، فإن الفلسفة والمنهج العلمي يفرض نفسه علينا مرة أخرى. لذلك، فإيجاد منهج علمي وفلسفة علمية تحتاج إلى باع طويل في العلم وخبرة في العلم كبيرة. وإنني أرى إن النصائح الفلسفية التي وضعها فاينمان على سبيل المثال، أو التي كتبها هايزنبرغ في كتاب "الفلسفة والفيزياء"، فيها ما يفيد وقوي في بناء منهج علمي متين اليوم. وكتب وأبحاث فلورنتين مرنداكا أيضًا فيها من الخبرة القوية في بناء منهج علمي صارم أيضًا. ولكن مع ذلك، يظل ويبقوا أبناء زمنهم بالنسبة إلى الكشوفات التي هي موجودة اليوم. ونحن أيضًا قد نكون أبناء ظروفنا الراهنة وأبحاثنا العلمية الموجودة، وقد نكون أيضًا غير مناسبين للظروف المستقبلية. فإنني أرى على إن الإنسان لا يبني منهجًا ويجعل العلم يسير على وفقه، ويكون العلم خادمًا لهذا المنهج وهذه الفلسفة، بل يكون المنهج والفلسفة خادمين للعلم. أعني أن تكون الفلسفة ضرورة عفوية، والمنهج العلمي أداة نستخدمها لحاجات العلم: كطريقة إجراء التجربة، وطريقة قراءة البيانات، وطريقة معالجة البيانات وحساب الأخطاء، وأسلوب حساب الفرضيات أو حساب صحة الفرضيات في علم الإحصاء. وبالطبع ستفرض علينا الضرورة الحياتية والعلمية على أن نوجد يومًا ما منهجًا علميًا كاملًا. ولكن ستبقى أيدينا مربوطة ريثما تحل معظم المتناقضات والصعوبات الموجودة اليوم في فيزياء الجسيمات والفيزياء الفلكية. أعني أنه لن يكون هناك فلسفة علمية كاملة إلا بوجود علم كامل، ولن يكون هناك منهج علمي كامل إلا أن يستقر العلم ويحل جميع صعوباته، وهو ما يجعلنا اليوم أيدينا مربوطًا ومغلولة. لهذا، وبما إننا اشترطنا على أن تكون الفلسفة العلمية رهن الظروف ومتصلة بالتاريخ والزمان والمكان الذي نحن موجودون فيه، فإنه يجب على الفلسفة العلمية أن تكون مجرد جمع للنتائج الفلسفية التي توصل إليها العلم،

بالإضافة إلى تخيل نموذج فرضي تفسيري يجمع بين كل هذه النتائج الفلسفية ولكن بنظرة علمية، لا بنظرة خيالية ولا تأملية. مثلاً، قد يصل العلم الفيزياء يومًا ما إلى مجموعة قوانين ونظريات جديدة تفرضها عليه الاكتشافات الحديثة، وكذلك البيولوجيا، وكذلك علم النفس. قد نضع نحن نموذجًا افتراضيًا ليجمع بينهم تحت نظرية فلسفية واحدة، ويبقى النموذج افتراضيًا حتى تكثر تطبيقاته ويكون صالحًا للاستخدام أكثر. ولا نهمل أيضًا تأثير التكنولوجيا وأدواتها على المعرفة وأسلوبها في تحليل البيانات. فدخول التكنولوجيا اليوم والأدوات مهم جدًا في أي فلسفة علمية. فاليوم، لنقل الفلسفة العلمية الراهنة اليوم، سنرى ما هي آخر كشوفات الرياضيات، سواء في المنطق ونظرية المجموعات والرياضيات البحتة والتطبيقية بآن معًا، وكشوفات الفيزياء في الجسيمات والفلكية والنظريات، وآخر أبحاث الفيزياء في الرياضيات، البيولوجيا، وآخر أبحاث الطب الخلوي والأعصاب، وآخر أبحاث علم النفس البيولوجي والصيدلاني، وآخر أبحاث علوم الاقتصاد والاجتماع، ونفترض من عندنا نظرية تناسب العلوم اليوم. وكلما زادت تفسيرات هذه النظرية نجاحًا وتقدمًا، واستخدمها العلم كثيرًا في نتائجه الفلسفية وأساليبه في الاستقراء والعمل، كانت هذه النظرية ناجحة. أعني الفلسفة العلمية التي أوجدناها. والمنهج العلمي هو الطريقة التي سيتبعها العلماء في فهمهم وفي تجاربهم. وما أن يصبح العلم كاملاً يومًا من الأيام، أي يحل جميع الصعوبات ويفسر كل شيء، حتى تستقر معه الفلسفة العلمية والمنهج العلمي. فالأمر رهن التطور العلمي والاقتصادي والاجتماعي. ننتظر ثم نصنع، لا نصنع ثم ننتظر. وهو أمر فرضته علينا الظروف اليوم، وتعلمناه من أخطاء وفشل الفلسفات والمحاولات السابقة، وضرورات التاريخ واستقراره. لا أنني أوجدت كلامًا ينطبق على كل زمان وكل مكان، بل ما قلته الآن هو إجراءات ظرفية تناسب الوضع العلمي اليوم والأبحاث العلمية والوضع المادي الاقتصادي في هذا العصر. علينا استخدام هذه الإجراءات ريثما يتقدم العلم ويأتينا بنتائج أخرى، ثم نغير سلوكنا في المنهج وفهمنا في الفلسفة العلمية.

لهذا لا يسعنا سوى تلخيص الإجراءات الظرفية ونعتبرها فلسفة علمية:

١– تجميع آخر كشوفات العلم ونتائجها الفلسفية من شتى المختصين.

٢– بناء نظرية افتراضية تجمع بين ميادين العلم المختلفة، وننظر إلى قدرتها التفسيرية ونتائجها في المختبرات وصحاحيتها في الاستخدام.

٣– ننتظر من العلم حتى يحل جميع مشكلاتهم ويعطي نتائج أفضل وتقنيات أفضل، ونحدث الفلسفة والمنهج العلمي على أساسه.

٤– الفلسفة العلمية والمنهج العلمي ضرورة تفرضها الظروف، وليست نتيجة تأملات.

٥– الفلسفة العلمية جهد جماعي بين مختصين من شتى العلوم، وليست تأملات من حكيم.

٦– المنهج العلمي طريقة عمل واستقراء ناجحة، وليست قواعد كلية.

٧– التغير حسب الظروف والزمان والإمكانيات، ونأخذ إجراءات متاحة.

٨– الحقيقة تعرف بأدوات، والفلسفة بفرضيات ناجحة ما بين التخصصات المختلفة، والمنهج العلمي طريقة عمل في المختبرات والنظريات.

٩– علينا انتقاء الألفاظ بدقة، وأسلوب علمي دقيق معرَّف تعريفًا دقيقًا وله استخدام حتى لا نتوه.

١٠– لا نعتمد على ما نألفه وندركه بمحيطنا الصغير، ولا على تصوراتنا الضيقة، ولا على قوانيننا العقلية من عقولنا الضيقة، بل نجعل العلم يقودنا ولا نقوده.

نحو النفعية العالمية العلمية

الأخلاق هي أهم شيء في المجتمعات، إذ أنه حتى تتقدم المجتمعات لا يكفي فقط أن تُبنى على منهج علمي وتتبع العلم في حياتها، بل لابد من الأخلاق أيضاً. إذ أن الأخلاق هي التي تقوم حياة الأفراد على المستوى الفردي، وهي أيضاً تنحو بالدول إلى الاتجاه الصحيح والتقدم، إذ أن الدول التي تعتمد على منظومات أخلاقية جيدة على الأقل على المستوى الداخلي الخاص بها، يؤدي بها إلى تطور وازدهار.
وحصرنا المنظومة الأخلاقية بالمستوى الداخلي؛ لأن اعتماد أسس أخلاقية دولية في السياسة الخارجية لأية دولة قد يضر بها بسبب الصراع العالمي المستمر الذي لم يتوقف بسبب طبيعة تقسيم العالم اليوم. لذلك فإن اعتماد الدول على منظومة أخلاقية جيدة على المستوى الداخلي لها سوف له فوائد كثيرة سوف نوضحها فيما بعد.

إن المنظومة الأخلاقية التي سوف نعتمد عليها ونؤسس لها كمرتكزات للأخوة الإنسانيين، تسعى للإممية الإنسانية الشاملة، ومنظومة الأخلاق النفعية العالمية العلمية؛ لأنها الأنسب بين المنظومات الأخلاقية للاعتماد في مجتمع إنساني عالمي.
إن منظومة الأخلاق النفعية العالمية تقوم على مقدمة جوهرية وهي بقاء الجنس البشري، فتضع في أولى أولويات المنظومة الأخلاقية بقاء الجنس البشري. لذلك فإنه تبعاً لهذه المقدمة يصبح أي فعل يضر بالجنس البشري وببقائه فعلاً غير أخلاقي في منظومتنا الأخلاقية. وبهذه المقدمة نسد الطريق على بعض المجادلين الذين يقولون على سبيل المثال: ما المانع في منظومتكم الأخلاقية من إبادة الجنس البشري؟ فالجواب: إن المانع هو مقدمة المنظومة الأخلاقية نفسها.

بعد المقدمة نأتي إلى الأسس التي تقوم عليها منظومة الأخلاق النفعية، وأول تلك الأسس هو: أن الفعل الأخلاقي هو الفعل الذي يحقق أكبر قدر من السعادة ويخفف أكبر قدر من الألم للفرد والمجموع. فالفعل يعتبر أخلاقياً إذا كان لا يضر ببقاء الجنس البشري من جهة، ويحقق أكبر قدر من السعادة ويخفف أكبر قدر من الألم.
فعلى سبيل المثال: علاج المريض هو فعل أخلاقي لأنه يحقق سعادة له ويخفف من ألمه. وعلى سبيل المثال فإن القتل من دون ذنب أو سبب وجيه هو فعل غير أخلاقي لأنه يضر بالبقاء البشري. والتعذيب على سبيل المثال أيضاً هو فعل غير أخلاقي لأنه يحقق الألم ويجلب كثيراً من الألم ويخفف السعادة. فالمعيار والأساس الأول هو تحقيق أكبر قدر من السعادة وتخفيف أكبر قدر من الألم.

ولكن حتى هذا المعيار لوحده غير كاف، إذ يقول شخص: إنه بموجب هذا المعيار فإن سرقة الغير هي فعل أخلاقي بالنسبة لي؛ لأنه يحقق لي أكبر قدر من السعادة ويخفف كثيراً من الألم الذي أعانيه بسبب الفقر. ولكن هذا الفعل غير أخلاقي، لذلك

سوف نضع معياراً آخر وهو: أن دفع الألم مُقدَّم على جلب السعادة. ففي الحالة السابقة هناك طرفان في المعادلة الأخلاقية: طرف سوف يصيبه ألم وطرف سوف تصيبه سعادة. وبما أن المعيار الثاني هو أن دفع الضرر أو الألم مُقدَّم على جلب السعادة، فإن الفعل يعد لا أخلاقياً أو غير أخلاقي، وبالتالي فإنه يجب عليك ألا تفعله من أجل عدم التسبب بألم للآخرين. وعدم التسبب بالألم مُقدَّم على جلب السعادة، وبالتالي فإنه يجب عليك عدم القيام بذلك الفعل.

قد تبرز مشكلة أخرى حتى الآن برغم المقدمة التي وضعناها والمعياران اللذان قدمناهما، إذ قد يقول شخص: ضمن هذه المنظومة قد نجد تبريراً للخيانة الزوجية إذ كانت غير معلومة للطرف الآخر. فلو خان الرجل امرأته على سبيل المثال ولم تعلم امرأته أنه يخونها، فإن الرجل يحقق أكبر قدر من السعادة والزوجة لا تتعرض لأي ألم، وبالتالي فإن هذا الفعل يعد أخلاقياً ولا يعتبر جرماً أخلاقياً أو يعتبر فعلاً غير أخلاقي بالنسبة للطرف الذي يخون الطرف الآخر؛ لأنه لا يوجد ألم تعرض له الطرف الآخر.

ومن هنا فإننا نضع معياراً آخر لضبط المنظومة الأخلاقية، وهذا المعيار هو: قابلية التعميم. ففي المثال السابق يعتبر هذا الفعل غير أخلاقي؛ لأنه لو قمنا بتعميمه فإن المجتمع سوف يهتز البنيان الذي يقوم عليه؛ لأنه في حالة الزوج فإنه يخون العقد مع شريكه، ومع أنه لا يتسبب للطرف الآخر بألم كون الطرف الآخر لا يعلم بالخيانة، إلا أنه لو عممنا ذلك الفعل - وهو خيانة العقود في المجتمع - فإن المجتمع سينهار أو يتأثر الاجتماع البشري وضاعت الحقوق ولم تقم للعقود قائمة. فخيانة العقود تؤدي إلى ضياع في الحقوق وسلب حقوق، وبالتالي فإن هذا الفعل أي خيانة الطرف الآخر في العلاقة الزوجية يعد عملاً غير أخلاقي؛ لأنه (أي الفعل) غير قابل للتعميم، رغم أنه لا يضر ببقاء الجنس البشري من جهة، ولأنه لا يسبب ألماً للطرف الآخر من جهة أخرى. وبالتالي فإننا بهذا المعيار الثالث نكون قد أحكمنا المنظومة الأخلاقية من أي شيء قد يعترض بنيانها.

يمكننا تلخيص المنظومة الأخلاقية الآن بعد أن وضعنا مقدمتها الأساسية والمعايير الثلاثة التي تقوم عليها، فنقول: إن منظومة الأخلاق النفعية العلمية العالمية تتألف من مقدمة وثلاثة معايير. أما المقدمة فهي: بقاء الجنس البشري. وأما معاييرها: أن الفعل يعد أخلاقياً في حالة كان يجلب أكبر قدر من السعادة ويخفف أكبر قدر من الألم، ودفع الألم مُقدَّم على جلب السعادة، مع قابلية الفعل للتعميم وحين تعميمه يحقق الشرطين السابقين. هذه هي منظومة الأخلاق النفعية العالمية الخاصة برابطة الأخوة الإنسانيين. لقد قمت بتوضيح بنيانها الأساسي، ولكن الآن تبقى مسألة مهمة، وهي مسألة الخلاف، وهي الإشكالية الفلسفية الكبيرة في هذه المنظومة الأخلاقية.

وهذه الإشكالية هي: من الذي يحدد أن الفعل (أ) على سبيل المثال يحقق السعادة ويخفف الألم؟ ومن الذي يحدد أن الفعل (ب) يحقق قدراً من الألم ويخفف السعادة أو يحقق قدراً من الألم ولا يحقق السعادة؟ هذه المعضلة الأشَد في المنظومة الأخلاقية النفعية: ما هو معيار السعادة؟ وما هو معيار الألم؟

إن المعيار من وجهة نظرنا يتألف من عدة نقاط، أو لنقل: إنه توجد عدة معايير. أول معيار هو: أن الفعل يعتبر أنه يحقق السعادة في حالة تحقيق الغرائز البشرية (أي الجنس والبقاء الإنساني) على سبيل المثال. ولكن تحقيق الغرائز لا يجب أن يكون بشكل مطلق، إن تحقيق الغرائز يجب أن يتناسق مع ضوابط المنظومة النفعية أو مع ضابطي المنظومة النفعية، وسوف أسميهما ضابطين: ضابط أن دفع الألم مُقدَّم على جلب السعادة من جهة، أو يجب ألا يكون هناك ألم لدى أي طرف في حالة تحقيق تلك الغريزة، ويجب أن يكون الفعل قابلاً للتعميم من جهة أخرى. فإذا كان هناك فعل بشري يحقق غريزة ما (ويشبع شهوة ما) ولا يسبب ألماً لطرف آخر، وهذا الفعل إذا عمم لا يختل بنيان المجتمع ولا يتأثر الأفراد، فإن هذا الفعل يحقق السعادة.

فلو تاجر شخص على سبيل المثال وربح عشرة بالمئة من سعر البضاعة، فإن هذا الفعل يمكن اعتباره يحقق سعادة له؛ لأنه بالمال الذي ربحه سوف يشبع غرائزه من جهة، ومن جهة أخرى فإن الفعل قابل للتعميم، فلو كان هناك تجار في المجتمع يربحون من بضاعتهم نسبة 10% في تنافس حر، فإن هذا الفعل لن يخلخل بنيان المجتمع بل سوف يدعمه؛ لأن التجارة مع عدم الربح الفاحش شيء إيجابي في الاجتماع البشري، ولن يؤثر ذلك على الأفراد الآخرين. من جهة أخرى الضابط أو المعيار الثاني الذي وضعناه هو أن دفع الألم مُقدَّم على جلب السعادة، فإن هذا الفعل لا يسبب ألماً لأي طرف آخر لكي نقول إن دفعه أو منعه مُقدَّم على جلب سعادة التاجر، وبالتالي فإن الفعل يمكن اعتباره أنه يجلب سعادة للفرد حسب معيار السعادة الذي وضعناه (أي تحقيق الغرائز من دون جلب ألم لطرف آخر وقابلية الفعل في ذاته للتعميم).

ومِن هذا المعيار يمكن أن نقول: إن الفعل الذي يحقق الغرائز البشرية ويؤدي لإشباعها فعل أخلاقي إذا انضبط بمعياري الإشباع أو الضوابط السابقة. ومن هنا نجد أن ثلاثة أرباع أفعال الإنسان يمكن محاكمتها على أساس هذا المعيار؛ لأن ثلاثة أرباع أفعال الإنسان مردها إلى الغرائز. فالإنسان يحب جمع المال على سبيل المثال وأن يكون غنياً لا فقيراً؛ لأن المال في مجتمعاتنا هو الذي يشبع تلك الغرائز. فبالمال يستطيع أن يتزوج أجمل النساء أو يرافقهن، وبالمال يستطيع أن يأكل أطيب أنواع الطعام ويشرب أفضل أنواع الشراب، وبالمال يستطيع أن يلبس أفضل أنواع

الثياب، وبالمال يكسب الراحة النفسية ويحقق رفاهية ممتازة، فبالمال يستطيع تحقيق السياحة والسفر إلى أي بلد يريده، وبالتالي يحصل على مديح الناس الذي هو (أي المديح) جزء من إرضاء الغرائز. وحتى التعليم والعلم قلما تجد شخصاً يسعى لتحصيل علمي أو أكاديمي جيد حباً بالعلم بحد ذاته أو حباً للحقيقة بحد ذاتها، بل إن العلم يعتبر وسيلة في نظر أغلب البشر وليس غاية؛ وسيلة لجمع كمية كبيرة من الأموال، أو وسيلة للشهرة، أو وسيلة لمديح الناس. وكل غاية من تلك الغايات يمكن إرجاعها لإرضاء الغرائز؛ فالمال والشهرة ومديح الناس يستطيع الإنسان من خلالها أن يتزوج أجمل النساء أو أن يصادقهن، وكلا منهما يعتبر طريقاً لجمع المال بطريقة أخرى، ومن جمع المال يمكنه أن يشبع الغرائز كما فصلنا في الأمثلة السابقة. فالأموال هي التي تحقق كل تلك الغرائز.

ومن هنا، فلو وجد نظام اجتماعي آخر لا يكون فيه المال هو الشيء الذي يرضي الغرائز، هل سيتهافت الناس على جمع الأموال؟ لو كان لدينا ذلك النظام الاجتماعي (ذلك النظام الذي لا يكون فيه المال يحقق تلك الغايات من مديح الناس إلى مصاحبة نسائية وأكل أفخر أنواع الطعام وشرب أفضل أنواع الشراب ولبس أفضل أنواع الثياب) لو كان الناس في ذلك المجتمع، فلن يتهافتوا على المال بكل تأكيد، بل سوف يتهافتون على ذلك الشيء الذي يحقق لهم تلك الغايات مهما كان ذلك الشيء. سابقاً في بعض المجتمعات القديمة كان هناك طبقة الكهنة من أرقى الطبقات وأكثرها ثراءً، فتهافت الناس على نيل لقب الكاهن. أما اليوم في أغلب المجتمعات الحديثة لم تعد طبقة الكهنة تحقق تلك الغايات، بل أصبح على سبيل المثال التعليم الجامعي والأكاديمي كالطب هو الذي يحقق تلك الغايات، فترك الناس التهافت على نيل لقب كاهن وأصبح الناس يتهافتون على لقب الطبيب أو الكاتب أو المطرب أو المغني؛ لأن كل تلك المهن في طبيعة مجتمعاتنا اليوم هي التي تحقق تلك الغايات والتي بدورها تشبع الغرائز.

وبعد هذا العرض نقول: إننا نستطيع أن نحاكم كثيراً من أفعال البشر هل هي تجلب السعادة حسب معيار إشباع الغرائز الذي وضعناه؛ لأن كثيراً من أفعال البشر مردها إلى إشباع الغرائز. فأي فعل يشبع الغرائز مع الضابطين اللذين وضعناهما يعتبر فعلاً يجلب السعادة، وأي فعل يشبع الغرائز ولكن من دون تحقيق الضابطين أو تحقيق أحدهما فإنه يعتبر فعلاً لا يجلب السعادة، أو يجلب السعادة ولكنه يجلب ألماً لطرف آخر سواء كان هذا الألم لطرف آخر أو لنفس الشخص الذي يقوم بذلك الفعل.

إن سعادة الإنسان لا يمكن حصرها بالجوانب المادية فقط، بل هناك معيار آخر ليس مادياً وهو الجانب الجمالي (حس الجمال لدى الإنسان). فإن هناك أشياء أخرى

يفعلها الإنسان لا يكون لها انعكاس مادي على الإنسان كما في حالة إشباع الغرائز، بل يكون لها أثر في تحقيق الحس الجمالي لدى الإنسان أو إشباع ذلك الحس. يوجد لدى الإنسان حس جمالي، وهذا الحس الجمالي لدى الإنسان يتم إشباعه بعدة أفعال حسب رؤية الإنسان للجمال. وحين يُشبع الحس الجمالي لدى الإنسان فإن سعادة من نوع معنوي تتحقق لدى الإنسان، حتى لو كان ذلك الشيء الذي يحقق السعادة شيئاً معنوياً لا مادياً (كإفراز بعض الإفرازات في الدماغ). ولكن الذي يهم أن السعادة نفسها لا تنعكس بأثر مادي كما في حالة إشباع الغرائز؛ فإن الشبع شيء يتم تحقيقه مادياً ويشعر الإنسان بالجانب المادي لهذه السعادة، على عكس إشباع الحس الجمالي الذي يحقق السعادة لا يشعر الإنسان بجانبها المادي. إن الحس الجمالي يتحقق بعدة أفعال يختلف من إنسان لآخر؛ فهناك شخص يرى الجمال في اللوحات الفنية، وشخص آخر يرى الجمال في بعض الأجساد (أجساد النساء) ولا يهمه الفن، وآخر يرى الجمال في العلم والاكتشافات العلمية. وبالتالي فإن الحس الجمالي الذي يستثار حين رؤية الفعل الذي يثيره (والذي من وجهة نظره هو الذي يؤدي إلى الجمال الحقيقي) يختلف من شخص إلى آخر، وهذا الاختلاف نابع من المحيط التأثيري. ولن أدخل في تفصيلات كيف يؤثر المحيط التأثيري في صياغة وتكوين الحس الجمالي لدى الإنسان؛ لأن ذلك نفصله في بحث آخر.

فالحس الجمالي يُشبع نتيجة أفعال يقوم بها الإنسان، وهذه الأفعال تختلف من شخص لآخر، وهذه الأفعال تكون متجانسة مع الحس الجمالي لدى الإنسان أو مع بنية الحس الجمالي لدى الإنسان. ومن هنا نصل إلى النتيجة التي نريد صياغتها والمتعلقة ببحثنا الأخلاقي، لنقول: إن أي فعل يشبع الحس الجمالي للإنسان، ودفع الألم فيه في حالة وجوده مُقدَّم (على السعادة، ففي حالة لا وجوده فإنه لا يسبب أي ألم)، وأيضاً إن هذا الإشباع قابل للتعميم من دون إخلال في بنيان وتماسك المجتمع، فإن هذا الفعل يجلب السعادة للفرد ويمكن وصفه بأنه يجلب سعادة للفرد، وبالتالي فإنه فعل أخلاقي. وبالتالي في الحالات التي كانت هذه السعادة لا تسبب ألماً للطرف الآخر فإن هذا الفعل يعد أخلاقياً.

من هنا نصل إلى معيارين نحكم بهما على أي فعل أنه يحقق سعادة للفرد:

المعيار الأول:أنه يشبع الغرائز البشرية مع عدم تسببه بألم لطرف آخر وألم لصاحب الفعل نفسه، وقابلية الفعل للتعميم.

المعيار الثاني:أن أي فعل يشبع الحس الجمالي للإنسان مع عدم تسببه بألم لطرف آخر، وقابلية الفعل للتعميم من دون التأثير في بنيان المجتمع؛ على أنه فعل يحقق السعادة. فهذان المعياران هما الضابطان اللذان نحكم بهما من وجهة نظرنا على أي

فعل أنه يحقق السعادة للإنسان.

من معايير السعادة يمكننا استنتاج معايير الألم أو الأفعال التي تجلب ألماً للإنسان.

أما المعيار الأول:فإن أي فعل لا يحقق إشباع غريزة بشرية أو يقف ضد إشباعها (مع أن هذا الإشباع لا يخل بشرطي إشباع الغرائز، أي أنه لا يضر بطرف آخر وأن الفعل قابل للتعميم)، فإن هذا الفعل الذي يمنع إشباع الغرائز يجلب ألماً للإنسان؛ لأنه يمنعه من السعادة التي كانت سوف تتحقق فيما لو قام هذا الإنسان بإشباع غريزته طالما كان هذا الإشباع يحقق بشروط عدم الضرر، وبالتالي فإنه يجلب ألماً. وأيضاً فإن أي فعل يضر ويضرب الغرائز البشرية أو يقف ضد الغرائز البشرية يعد فعلاً غير أخلاقي في حالة كان التحقيق يتم بالطريقة التي تحدثنا عنها.

وبالتالي فعلى سبيل المثال: حبس الناس فعل غير أخلاقي؛ لأنه يقف أو يقمع غريزة البقاء. وإن قتل الناس من دون وجه حق يسبب ألماً؛ لأن الفعل يتعارض مع غريزة البقاء. وقمع الغريزة الجنسية التي يتم إشباعها ضمن الشرطين اللذان تحدثنا عنهما يعد فعلاً يجلب ألماً؛ لأنه يقمع غريزة أساسية في الإنسان.

ويمكننا مما سبق استنتاج: أن أي فعل يؤدي إلى منع الأفعال التي تؤدي إلى إشباع الغرائز هي أفعال تجلب ألماً للإنسان. فعدم العدالة الاقتصادية والتفاوت الطبقي يعتبران أفعالاً تجلب ألماً للإنسان؛ لأن عدم العدالة الاقتصادية يقف في وجه تحقيق الغرائز الإنسانية، وبالتالي فإنه فعل يجلب ألماً، وبالتالي فإنه فعل غير أخلاقي.

إن المعيار الثاني للحكم على شيء أنه يجلب ألماً للإنسان: أن الأفعال التي تقف في وجه إشباع الحس الجمالي للإنسان، في حالة كان هذا المنع لا ينتج من الشرطين اللذان وضعناهما (بل من اعتبارات أخرى دوغمائية لا دليل على صحتها)، فإن الفعل ذاك (أي منع تحقيق حس الجمال) يعد فعلاً يجلب ألماً للإنسان. ولكن لو كان ذلك الفعل (أي إشباع حس الجمال) يجلب ألماً للإنسان، وإذا كان المنع يستند على ضابطي السعادة والألم (أي لو كان الفعل يجلب ألماً لطرف آخر أو عدم قابليته للتعميم، أو كان فعل يحقق كلا الشرطين أو يخرق كلا الشرطين) فإن ذلك المنع وإن كان يسبب ألماً، ولكن هذا الألم مبرر؛ لأن دفع الألم إلى الطرف الآخر مُقدَّم على جلب السعادة التي سوف تتحقق، أو لأنه في حالة تعميم ذلك الفعل فإن بنيان المجتمع والتجمع البشري سوف يهتز. وبالتالي حينها يكون عدم إشباع الحس الجمالي لا يسبب ألماً للإنسان؛ لأنه إما يعلم أن إشباع ذلك الحس سوف يؤدي إلى مشكلات أخلاقية، أو أن الشخص نفسه لا يعلم أن إشباع حسه الجمالي يؤدي إلى تلك المشكلات الأخلاقية، ولكن كون المشرع الأخلاقي يعلم أن إشباع ذلك الحس الجمالي سوف يؤدي إلى تلك المشكلات، ومما أن دفع الألم مُقدَّم على جلب السعادة

للفرد والمجتمع، فإن ذلك الفعل الذي يشبع الحس الجمالي يخل بشرطي الإشباع، وبالتالي فإن جلب الألم لذلك الشخص مبرر حينها.

إلى هنا نستنتج: أن أي فعل يقمع إشباع الغرائز البشرية بشرط كان ذلك الإشباع يحقق الشرطين الصحيحين، وأن أي فعل يؤدي إلى قمع إشباع الحس الجمالي بشرط أن ذلك الإشباع يضمن بشرطي الإشباع الصحيحين، فإن تلك الأفعال تولد ألماً لدى الإنسان، وبالتالي فإنها تعد أفعالاً غير أخلاقية، وبالتالي يجب محيها وعدم إشاعتها في المجتمع.

يمكننا أيضاً الركون إلى معيار ثالث ومهم في الحكم على الفعل بأنه يجلب سعادة أو ألماً، وهذا المعيار يمتاز بالدقة؛ لأنه مرتكز إلى العلم. فحسب هذا المعيار: إذا قال العلم وأشار أن فعلاً ما يسبب ألماً للإنسان أو يضر بالوجود الإنساني أو البقاء الفردي، فإنه يمكننا الحكم حينها تبعاً للعلم أن ذلك الفعل يجلب ألماً ولا يحقق السعادة، وبالتالي نجعله غير أخلاقي. كقول العلم إن المخدرات تضر بالإنسان، أو أن التدخين بشكل مفرط يؤثر على حياة الإنسان، وكقول العلم إن زواج الصغيرة فيه ضرر مفرط على جسدها وصحتها النفسية، أو قول العلم إن شرب مشروبات معينة وأشياء معينة كبول الإبل مضر بالصحة. وللأسف فإن هذا الاعتقاد (أي شرب بول الإبل) لا يزال بعض الحمقى يعتبر أن شربه مفيد للإنسان مع أن العلم يكذبهم. أو أن يقول العلم إن أكل أشياء معينة لا يضر بالجسد، وإن شرب بعض المشروبات لا يضر بالجسد، وبالتالي حينها يمكن الاستناد على العلم في الحكم أن تلك الأفعال تجلب ألماً للإنسان من جهة أو تحقق السعادة من جهة أخرى. فيمكننا الاستناد على العلم في الحكم على أن فعلاً ما يحقق سعادة للإنسان. فلو قال العلم إن أفعالاً معينة تحقق سعادتنا وتشبع الغرائز بشرطي الإشباع، فإن هذا الفعل يجلب السعادة للإنسان، وبالتالي فإنه يعد فعلاً أخلاقياً، وبالتالي يمكن تشجيعه في المجتمع. وبالتالي فإن العلم يعد معياراً محكماً ودقيقاً للحكم على الفعل بأنه يجلب سعادة ويدفع ألماً. وذلك يكون في حالة كان العلم قد قال قولاً في الأمر الذي نبحث فيه، وأما إذا لم يقل العلم قولاً في المسألة المطروحة، أو مناهج العلم لا تنفع في التطبيق على المسألة، فيمكننا الاستناد إلى المعيارين السابقين اللذين ذكرتهما.

وإلى هنا نكون قد ذكرنا ملخصاً وافياً للمنظومة الأخلاقية التي سوف نعتمدها، وإن كانت هناك بعض النقاط والإشكالات التي تحتاج إلى توضيح في هذه المنظومة الأخلاقية، إلا أننا سوف لن نناقشها هنا وسوف نتركها إلى بحث آخر مستقل لوحده؛ لكي لا تطول أبحاث هذا الكتاب الذي نريده تلخيصاً لبعض أفكار رابطة الأخوة الإنسانيين الأممية.

لقد اخترنا تسمية هذا الفصل بهذه التسمية لأننا نرى أن الأفعال السياسية والاقتصادية يجب أن تقوم بشكل منظم وتُظْفِر بنتائج بحسب الإمكانيات والظروف، أي باختصار بشكل علمي. وما الذي يعني أننا يجب أن نوجه المجتمع وأن يكون توجه الدولة بشكل علمي؟ ذلك يعني ببساطة ألا نقود المجتمع بقيم لا عقلانية أو خرافية ميثولوجية قديمة أو أيديولوجيا قاتلة تؤدي إلى الهلاك الجماعي، وكذلك أن تقوم الأشكال المجتمعية والمؤسسات السياسية على الظروف الاقتصادية المادية الحالية وتطورها، وليس على خيالات ونصوص. وهذه النقطة بالغة الأهمية لأن الفوضى في المجتمعات والسياسة السائدة اليوم – التي لا تعرف توجهًا ولا تعرف عدالة ولا تنهي المعاناة التي يبتلي بها الكثير – لهذا لن نبحث عن حلول سحرية لحل جميع المشاكل في العالم، فهو أمر متعذر على كل شخص أن يجده. ولكن بالمقابل، المطلوب منا هو صناعة منهج أو البحث عن منهج يُظْفِر بنتائج حقيقية للمجتمعات والسياسة، ويكون بشكل عقلاني ومنطقي وحقيقي من ظروف ملموسة اقتصادية ومتغير مع التطور الجاري، دون أن يكون ثابتًا على شكل معين أو نجعل الخيال هو الذي يقود بحيث لا نناسب الظروف والتطورات الحالية.

لهذا، نقولها على سبيل المثال: كثير من المجتمعات والمؤسسات تسعى لترسيخ الاشتراكية على سبيل المثال، وقد تكون غير مناسبة لتلك الظروف وتلك الأحوال. وكثير من المؤسسات تسعى مثلاً إلى الاقتصاد الحر وقلة تدخل الدولة، وأيضًا تكون غير مناسبة. وكثير من المؤسسات والمجتمعات تسعى إلى ترسيخ قيم دينية لا عقلانية قديمة غير مناسبة للأفراد اليوم وللتطورات اليوم؛ لأن الدين على سبيل المثال نشأ في مجتمعات زراعية وبدوية، والاقتصاد الكلاسيكي الحر على سبيل المثال قد يكون غير مناسب لأزمان وأحوال وأماكن معينة، والاشتراكية كذلك، وحتى النظام الكينزي. لهذا، أن يكون هناك عقل علمي يراعي التطورات والتغيرات الحالية والظروف والإمكانيات المتاحة هو المنهج الأسلم برأينا، لأننا ليس لنا غاية بعبادة الألفاظ أو الشعائر أو حتى القيم، بل أفعالنا لن تكون وانطلاقنا وتوجهنا لن يكون إلا وفق الظروف والتطورات. الذي ابتلي به الجنس البشري منذ القدم هو العبادة، أعني عبادة المفاهيم، عبادة الكلمات، عبادة النصوص، عبادة الشعارات، عبادة الأحلام، فضلاً عن عبادة الأشخاص.

فالمطلوب منا اليوم، ونحن في القرن 21 ولدينا تجارب كبيرة وخبرة كثيرة في التاريخ، أن نركز على الغايات لا على الوسائل، أن يكون الهم من النتائج دون الكلمات والمصطلحات والطرق المؤدية إلى ذلك. وأي حوار ينشأ وخطة يجب أن ترسم يجب أن توضع بحيث تُظْفِر بنتائج حقيقية وملموسة، وانطلاقًا من الظروف والإمكانيات المتاحة وبناءً على التطورات الاقتصادية والمجتمعية الحالية.

لنقل مثلاً: الدولة ليست مفهوماً نازلاً من السماء ولا نابتاً من الأرض، يجب أن تحقق الدولة غايتها، وهي إسعاد كل من يشترك على هذه الأرض، وإلا لم يعد للدولة فائدة. أي أن تكون الدولة مثلاً شركة اقتصادية اجتماعية أفرادها هم المواطنون، تكون جهازًا تنظيميًا يُدار برقابة شعبية وديمقراطية حتى لا يحدث احتكار وديكتاتورية، هدفها الإسعاد والأمان والعدالة ليس كشعارات وألفاظ بل كطرق علمية ونتائج ملموسة. ولا يهم الطريقة التي أدت إلى ذلك بأي نظام اقتصادي كان، سواء اقتصاد حر أو اشتراكي أو مختلط أو أيًا كان، بأي نظام سياسي سواء ديمقراطي برلماني أو ديمقراطي مباشر أو ديمقراطي ملكي أو أيًا كان. أي عندنا الغاية تبرر الوسيلة، ولكن تكون الغاية فيها خير جماعي لأكبر عدد ممكن من الأفراد بحيث تدوم السعادة لأطول فترة ممكنة.

الأمر لا يحتاج إلى كثير من الفلسفة ولا إلى الكثير من القيل والقال والجدالات، بل الأمر واضح كل الوضوح، على أن البيولوجيا الإنسانية تفرض أن يكون للإنسان حاجات يجب أن تُؤمَّن ورغبات يجب أن تتحقق ما لم تتعارض مع الآخرين، ويجب أن يكون هناك جهاز تنظيمي لكي لا تحدث فوضى وظلم بين الأفراد. والطريقة التي تنظم بحيث تؤمن الحاجات والرغبات للأفراد بشكل عادل دون فوضى ودون ظلم وبعدالة حقيقية نسميها منهجًا صحيحًا، وهو الذي نبحث عنه ونفعله، بالإضافة إلى دراسة التغيرات الحاصلة على مستوى المجتمعات ومستوى السياسة والاقتصاد. وأيضًا أي تغيير يستطيع فعله الإنسان أو أي مؤسسة بحيث تثمر عن نتائج مفيدة وحقيقية يجب أن يحصل إذا برَّر نفسه هذا التغيير، أعني أن يكون هذا التغيير وفقًا للإمكانيات المتاحة وينهي معاناة موجودة ويُظْفِر بسعادة كبيرة بأكبر عدد ممكن من الأفراد.

لنقل مثلاً: الحرية الجنسية والديمقراطية والاقتصاد المختلط والقانون القائم على حقوق الإنسان، كلها مفاهيم سهلة التطبيق وتجارب أثبتت نجاحها وتنهي معاناة كبيرة، فتكون هي الهدف على سبيل المثال، ويبقى الأمر عن كيفية تطبيقها وترسيخها. والأمر ليس أكثر من ذلك، وهو واضح كل الوضوح لدى كل فرد يفكر فقط، وبديهي جدًا لدى كل إنسان طبيعي وعادي، وحتى أبسط الناس يفهمون هذا الكلام بل ويجدونه أكثر وضوحًا وبساطة من أن يُقال. ولكن للأسف الدعاية السياسية والأيديولوجية والدينية تعمي الإنسان عن توجهه الطبيعي وعمله الذي قد يكون مثمرًا إثمارًا حقيقياً دون أن يضيع في متاهات اصطلاحية ولا أحلام خيالية، ولا أن ينتج عنه استغلال أو ديكتاتورية أو حروب عالمية أو أهلية. لهذا يحتاج الأمر إلى خبراء ومختصين ذوي نوايا صالحة ونقَّاد حتى تستطيع أي مؤسسة أو أي مجتمع أن يتوجه إلى التوجه الصحيح.

نحن لا نترفع عن أحد ونقول بأننا أصحاب طريق النور والناس جهل إلى آخره، بل النية يجب أن تكون فعلاً صحيحة ومثمرة، وكل ما هو صحيح ومثمر نتبعه ونجري عليه، وليس عبادة كلمة شعار وأيديولوجيا بالقوة أَم بغيرها يجب أن تطبق سواء كانت صحيحة أم لا مثمرة أم لا؛ بحيث إننا بدل أن تخدمنا هذه النظم وهذه الكلمات، نصبح نحن عبيدًا وخدماً لها دون أن نستفيد شيئًا. يجب علينا أن نتخلص من هذه الوثنية ونرمي هذه الأصنام، ونفهم فكرةً على أننا نحن الذين يجب أن نُعْبَد لا أن نعبد مفاهيم لا تسمع ولا تبصر ولا تفيد شيئًا. نحن الذين يجب أن نُخْدَم ونُظْفِر بنتائج، لا أن نخدم مشروعًا وشعارات هي من اختراعنا أصلاً، والاختراع الذي لا ينفع وثبت ضراره يجب أن يُرْمَى. وعلينا التذكر أن الوطن والدولة والدين والاقتصاد كلها من اختراعات الإنسان، فالإنسان هو الذي يحددها وهو الذي يسير بها، وهي كلمات وألفاظ من اختراع الإنسان أيضًا. فبدلاً من أن تخدم هذه الاختراعات الإنسان، أضحى الإنسان عبدًا لها، يشقى في حياته من أجل أن يخدم ألفاظًا، أي أصواتًا في الهواء وهي غير موجودة أصلاً. لقد عدنا إلى الخيال الديني الذي كان عند الإنسان القديم، وهذه اليقظة يجب أن تكون لدى جميع الناس: أن يميز الإنسان بين سعادته الحقيقية وحياته الملموسة، وبين الكلمات والاصطلاحات والاختراعات التي هي من عند الإنسان، والتي من المفترض أن تخدم سعادته الحقيقية والملموسة. ويجب إيجاد وسائل علمية مثمرة منطقية وعقلانية لتحقيق ذلك، بعيدًا عن الشعارات والأحلام وعبادة المفاهيم والأشخاص.

نلخص كل ما ذكرنا بالنقاط الآتية:

1. البحث عن الظروف والإمكانيات الحالية ودراسة التطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بشكل علمي بحث وبمعطيات موثوقة، والعمل وفقًا لها.

2. العمل والتغيير نحو أكثر سعادة لأكبر عدد ممكن من الأفراد لأطول فترة ممكنة من الزمن.

3. المفاهيم والاصطلاحات والاختراعات التي هي من عند الإنسان كالوطن والدولة والاقتصاد، يجب أن يكون هدفها خدمة الإنسان.

4. الاعتبار بالنتيجة والغاية، ولا يهم الطريقة التي أدت إلى هذه النتيجة، بحيث تكون النتائج مثمرة ومفيدة لكل الناس.

5. السياسة منهج لخدمة كل الناس، والاقتصاد إدارة الموارد والتجارة والأعمال لخدمة كل الناس، والوطن أرض للعدالة وللرفاه وللأمان، والدولة منظمة اجتماعية اقتصادية لخدمة كل فرد.

نحو العدل الاقتصادي

من المجد البحث عن نظرية اقتصادية، أو لنقل نظام اقتصادي، فيه أكبر منفعة ممكنة لأكبر عدد من الأفراد في أطول فترة ممكنة، أو على الأقل لنقل نظام اقتصادي ديناميكي، أي متغير وفقاً للظروف والتطورات، بحيث يعطي أكبر نفع ممكن. والمفارقة هنا هي أن كلمة "نفع" إلى من بالذات؟ هي من أولوية أرباب المال والأرض والعمل، أم هي لمالكي قوة الإنتاج أي العمال أو البروليتاريا، أم أنها توازن بين المصالح المختلفة؟ هنا لا نهدف إلى بناء نظرية اقتصادية متكاملة، ولا ترجيح إحدى المدارس الاقتصادية على الأخرى، إنما هنا الغاية هي البحث عن هدف اقتصادي، لنقل: أكبر نفع ممكن لأكبر عدد ممكن من البشر. والبشر هنا كائن مجرد، ليس من المهم هو عمله ولا منصبه ولا نمط إنتاجه، هنا من ناحية نفعية، دون أن نختم فكرة معينة أو نحقق فكرة أمثَلية عالية كالمجتمع الشيوعي أو حرية الفكر أو الحرية المطلقة لرأس المال، بدعوى أن التاريخ يجري إلى تلك المرحلة، أو أن الطبيعة لا تفضل إلا هذا الشكل. إنما نحن نؤمن إيماناً، أو لنقل على الأقل نفضل وجهة النظر هذه من الإيمان، على أن الاقتصاد البشري هو مُختَرَع (اختراع) أكثر من كونه ضرورة كما بالغ فيه الكثير من المفكرين. ووجهة النظر هذه قد تبدو من الثورية بل ومن الشذوذ، ما يجعل الكثير من الاقتصاديين اليوم يرفض وجهة النظر هذه. ولكن لنا من وجهة النظر التي اخترناها ما يبررها، فنحن نرى أن الظروف والإمكانيات هي أمور خارج عن الاقتصاد، إنما الاقتصاد هو اختراع ومخططات من عند الإنسان لاستغلال هذه الظروف والإمكانيات، وتختلف هذه الاختراعات والخطط حسب من هو المستفيد منها، أو لنقل المخطط والمنظر الذي يسعى إلى استفادة طرف على حساب الأطراف الأخرى، أو ربما يعتقد أنه بهذه التخطيطات والاختراعات ستشتغل الإمكانيات في الظروف بأفضل وضع ممكن.

لهذا، ولأن علم الاقتصاد مادته التجريبية هي الإمكانيات والظروف، أي أمور مادية ملموسة واقعية، فإن علم الاقتصاد لابد وأن يعتمد على النتائج التجريبية، أي على أرض الواقع. لهذا فالتاريخ جزء أساسي جداً من علم الاقتصاد. والاقتصاد هو نشاط مجتمعي، بحيث مساهمات الأفراد بمختلف مؤسساتهم وأدوارهم يساهمون في الاقتصاد، لهذا فعلم الاجتماع أيضاً جزء منه. وإدارة الأموال وتنميتها وربحها وتخزينها وادخارها واستثمارها جذع أيضاً من علم الاقتصاد، لهذا فعلوم الإحصاء والمالية والرياضيات هي أيضاً جزء من علم الاقتصاد. ولكن علم الاقتصاد لابد له من فلسفة ينطلق عليها قبل تخطيط هذه الإمكانيات التي بين أيدينا والتي نريد إدارتها: إلى أي توجه ندير ها؟ ولماذا؟ هل هي لطبقة أوليغاركية أقلية تستحوذ على

الحكم، عندئذ يكون علم الاقتصاد بما ينمي من ربح هذه الطبقة؟ أو يكون بحيث هو – أي من ناحية تقديس الملكية الخاصة وتنمية الاستثمارات – عندئذ يعطي علم الاقتصاد الأولوية للتحليل الجزئي والمشاريع الخاصة والاستثمارية، فيكون تخطيط علم الاقتصاد بالأساس على التشجيع للاستثمار والخطط بتنمية السوق؟ أم أن علم الاقتصاد تكون الأولوية له للطبقة التي كانت محرومة من الامتيازات والملكية وتسعى الآن للسيطرة على الحكم وتريد تأميم وسائل الإنتاج، عندئذ يكون علم الاقتصاد هو تخطيط جماعي شامل كلي، عندئذ تكون مادة علم الاقتصاد هي المؤسسات العامة وإدارتها وتخطيطها، بحيث المجتمع يخدم نفسه بنفسه؟

لهذا فإن علم الاقتصاد هو مدارس فكرية متصارعة أكثر من كونه علماً كلياً له قواعد كالفيزياء. أما نحن من جانبنا، فنترك التخطيط الاقتصادي لأهل الاختصاص، ولكن ما علينا سوى تحديد هدف لعلم الاقتصاد، أي الهدف من تخطيطه، والبحث عن قواعد وطرق وأساليب لخدمة هذا الهدف، تماماً مثل ما سعى الاشتراكيون – وأخص منهم المركزيون الماركسيون – لخدمة وإسعاد الطبقة العاملة بحيث إنهم المنتصرين في الصراع. وتماماً مثل ما رأت مدرسة آدم سميث وأصحاب الاقتصاد الحر في حرية التجارة والملكية الخاصة وتقوية السوق بحيث يكون له ذاتيته وحركته وتنظيمه العفوي "باليد الخفية"، أو مدرسة الاتجاه المختلط التدخلي لكنز، بحيث يكون الهدف هو التوازن بين الدولة والسوق فتتدخل الدولة لتصحيح مسار السوق كي لا يخرج عن السيطرة ويذهب إلى الفوضى. ونجد نحن لكل مدرسة اقتصادية هدف ثم البحث عن خطط وتحليل، وكل هدف ينبع أساساً عن نظرة فلسفية: أهو الحق لصاحب الملكية؟ أم الحق للمنتصر في الصراع الطبقي؟ أم التوازن بين القوى كي لا تخرج الأمور عن السيطرة؟ نحن هنا لن نسعى إلا للإجابة عن إيجاد الهدف بداية، مما قررناه سابقاً في هذا الكتاب، على أن الهدف من أي منظومة أخلاقية أو سياسية هي إسعاد أكبر عدد ممكن من الأفراد لأطول فترة ممكنة. ونحن هنا لم نحدد الفرد: أهو عامل أم ثري أم تاجر أم سياسي أم رجل دين أم بائعة هوى، أو أياً يكن. فالهدف من أي نظام اقتصادي هو أن يكون الكل سعيداً، أي يكون بصحة جيدة، ويملك ما يريد وغير محروم مما يتمنى بالقدر المستطاع، بحيث لا يتضارب مع رغبات وحاجات الآخرين. هذا الأمر على الرغم من بساطته إلا أنه على غاية من الأهمية، وله نتائج وتبعات كثيرة: فلا أمة تغزو أمة، ولا طبقة تستغل طبقة؛ فلا البرجوازيون التجار يستغلون العامل في أجره وحياته، ولا طبقة العمال تضطهد بشكل ديكتاتوري طبقة البرجوازيين (هذا إذا تحدثنا بلغة طبقية). ولا الغربي أفضل من الشرقي، ولا الشرقي له الأحقية في إرهاب الغربي. كما

أيضاً ليست أمة أفضل من أمة من حيث أن تستعمرها وتحتلها، ولا دين أفضل من دين من حيث له الأحقية في استرقاقه وأخذ الجزية منه مثلاً أو حتى قتله. فمهما ضربنا من أمثلة في السياسة أو الاقتصاد أو الثقافة أو حتى العلم، من حيث منهجنا الإنساني سنجد أن له تبعات كثيرة. فنحن لا يهمنا الشكل الاقتصادي بقدر ما يهمنا نتائجه على أرض الواقع، ولا تهمنا شكل السياسة بقدر ما تهمنا سعادة الناس على هذه الأرض. فالاقتصاد عندنا هو اختراع وأداة يجب أن تتغير في كل زمن وفي كل فترة حتى يحقق غايته، أي إسعاد الناس. وعندنا أن الاقتصاد هو ذاتي إلى حد ما، لا يخضع كثيراً لشروط الموضوعية كما هي، أي لا يُطبَّق كما هو في كل زمان وفي كل مكان. مثلاً: البلدان التي تصلح للرأسمالية قد يصلح غيرها للاشتراكية، وغيرها يصلح أي اقتصاد مختلط كالإسلامية والكنزية ومدرسة التوازن ومدرسة الرفاهية والمدرسة الحدية. كما أننا نلاحظ أن بلاد أوروبا ما قبل 1975 كانت على النظام الكنزي، أي مدرسة كينز الاقتصادية، ونجد أنه ما قبل 1929 أنها رأسمالية بحتة. واليوم نجد الدول الاسكندنافية هي لها اشتراكيتها الخاصة: اشتراكية الرفاهية المتعالية. واليوم نجد الحزب الشيوعي الصيني يأخذ بقوانين الرأسمالية البحتة من حيث المضاربة المالية والاستثمار وإنتاج البضائع الاستهلاكية، مع مركزية البنك المركزي والقرارات السياسية الكبرى وقطاعات الطاقة الكبيرة بيد الدولة وهذا عنصر اشتراكي بحت. ونجد اليوم بلاداً مثل فرنسا تحكم بالرأسمالية والاشتراكية بذات الوقت، وروسيا التي تأخذ بالرأسمالية التدخلية.

لهذا فإن كل بلد يأخذ اقتصاده ويخططه وفقاً للزمان والمكان الذي هو فيه. لهذا فإننا نرى أن علم الاقتصاد مشروط، وشرطه الظروف والإمكانيات والزمان والمكان، فلا علم اقتصاد مطلق عندنا، بل إنما هو ديناميكي مطاطي متغير إلى أبعد الحدود. الهدف ثابت عندنا والعلم متغير، أي أننا لن نرى علم الاقتصاد إلا أدوات لاستغلال الإمكانيات المتاحة وتنميتها لكي ينعم كل الأفراد بسعادة بغض النظر عن عملهم ومرتبتهم وطبقتهم ودينهم وانتمائهم، فلا امتيازات لأحد. لهذا فإن علم الاقتصاد هو اختراع بحت وأساليب من عندنا، فنحن الذين نقود الاقتصاد ليس هو الذي يقودنا، سواء عن طريق الدورة الجدلية أو عن طريق الاستثمار الفوضوي. نحن من بعد دراسة وظروف نقرر فيما إذا كان الاقتصاد تدخلياً أو جماعياً أو استثمارياً أو حتى تأميم كامل، لا نتشدد بنمط واحد ولا نتعصب له، إنما هدفنا هو الغاية فقط.

مبادئنا على غاية من البساطة لكن لها نتائج مثمرة جداً، فإننا أساساً في الاقتصاد نبحث عن النتائج المثمرة، نبحث عن الازدهار، هذا هو الغاية من الاقتصاد. فيكون اقتصادنا بحسب الزمان والمكان، وبقدر الإمكان يكون بأقل قدر ممكن من الأذى إن استطعنا، أي بحيث لا تنشأ حروب ولا تناقض مصالح ولا ضرورات طبيعية

وكوارث تؤدي إلى الألم ومساوئ لا يريدها أحد. فإننا نرى اليوم التغيرات التي طرأت على المجتمعات، فالإمتيازات الدينية والعبودية كما كان في العصور الوسطى انمحت، وهذا أيضاً دليل على أن الإنسان يستطيع أن يتغير دون أن تقوده الضرورة. وكان من أخطاء بعض الاقتصاديين الكلاسيكيين كآدم سميث وماركس وريكاردو هو اعتقادهم أن المجتمع الذي عاشوا فيه قد يدوم إلى الأبد، لهذا فإن نظرياتهم قد تكون في يومنا هذا ناقصة إلى حد بعيد، فإنهم جميعاً وبلا استثناء لم يكونوا يتوقعوا هذا التأثير الهائل للعلوم على الاقتصاد والمجتمعات وتغير أشكالها. فاليوم بجانب التنظيم المجتمعي السليم، فإن التقنية العلمية تعتبر الأساس في بناء رفاهيتنا وسعادتنا وإنقاذنا من البؤس إلى حد بعيد. فبفضل المكيف والتلفزيون والسيارة والإنترنت والمايكرويف والبراد ومبرد المياه (الكولر) يعيش أي إنسان متوسط مثل الملوك في العصور القديمة بل وأكثر. فبفضل التقنية العلمية اليوم أُلغيت العبودية واستغلال العمال، بل وتعالجنا من أكثر الأمراض وصارت مناعتنا أقوى، والأدوات التي نملكها تختصر علينا الكثير من الجهد والتعب والعذاب بل والاستغلال حتى.

فبفضل آلات الري الحديثة والأدوات كشفاط المياه والكونز (الخزانات) والبيت البلاستيكي والهرمونات، لم يعد هناك حاجة لاستغلال العمال أو حتى محاربتهم، ففي كل أنحاء العالم الفلاحون شبه أثرياء، وهذا بفضل التقنية العلمية. كذلك أصبح الكثير من الناس باستطاعتهم الدراسة والأكل شبه يومي والعيش لعمر طويل، وهو ما لم يكن باستطاعة الكثير من الناس في القرون الماضية، وهذا أيضاً بفضل التقنية العلمية. ولكن للحق نقول: التقنية العلمية وحدها لا تكفي دون نظام حقوقي اقتصادي دولي وقانوني متكامل، فلا نريد أن تستخدم التقنية العلمية لتثبيت الديكتاتور أو لرقابة الصحافة أو لقتل الناس أو لنشوب الحروب الكبيرة. لهذا فإننا نرى أيضاً أن العلوم الإنسانية هي أيضاً اختراع، أهمها الاقتصاد والقانون والسياسة، يجب أن تحقق ثلاثتها الغاية الوحيدة، وهي إسعاد أكبر عدد ممكن من الأفراد لأطول فترة ممكنة، وجميع قواعد هذه العلوم تُحدد وفقاً لهذه الغاية. من أجل هذا فإن الديمقراطية وفصل السلطات مثلاً، والانتخابات، والمال الحكومي لدعم القطاع العلمي، والسماح لشركات الاستثمار الكبرى بالمنافسة مثلاً تحت رقابة الدولة، والسماح بتشكيل الأحزاب والرقابة وحكومات الظل، مع تغير كل هذه الآليات مع الزمن، بحيث يكون أبناء هذا الحاضر في هذا المكان يأخذون حاجاتهم ولا ينقصهم شيء، أي باختصار يكونون سعداء بالمعنى الشعبي العام. الأمر يبدو على غاية في البداهة وواضح جداً لا يختلف عليه اثنان، والمطلوب فقط هو تطبيق هذا الكلام.

ولكن لا ضير في أن نبين بعض سلبيات المدارس الكلاسيكية المشهورة في علم

الاقتصاد. لنبدأ بالماركسية التي ترى أن الإنسان محكوم بقوة اقتصادية تديره بدلاً من أن يديرها، مع أن ماركس نفسه قال: "إنما الهدف من الفلسفة هو تغيير العالم لا فهمه". فالحتمية التاريخية على الرغم من قوتها لا تبدو صحيحة في الكثير من الأحيان، فكثير من الدول أخلاقيات الشعب وثقافتهم وثقتهم في أنفسهم هي التي قادت إلى تقدمهم وتطورهم، وليس مواردهم والصراعات الاجتماعية التي كانت فيها، مثل اليابان والإمارات وماليزيا، فهي شعوب مترفة إلى حد بعيد وسعيدة ونسب الفقر تكاد تقل فيها جداً. من سلبيات الماركسية هو أنها تريد أن نختم المستقبل على حساب الحاضر: لماذا يجب على العمال أن يخاطروا بأنفسهم بحروب أهلية كبيرة من أجل مجتمع شيوعي لن يتحقق إلا بعد مئات السنين؟ هذه مشكلة، إنما من مصلحة كل طبقة وكل شخص أن يعيش حاضراً سعيداً لا أن يمهد لمستقبل بعيد سعيد لن يشارك فيه. هذا بجانب أن الماركسية فلسفة لا تؤمن بآخرة، فيكون من العبث بناء مستقبل سعيد لا يشارك فيه، وهو ما يناقض مبدأنا في مطاطية علم الاقتصاد وأنه اختراع ويجب تغييره وفقاً للزمان والمكان، بحيث يكون الحاضر هو الأكثر سعادة، وإذا تغير الحاضر نغير أدواتنا ومناهجنا، ليس الأمر بذلك الصعب.

وكذا نجد عند مدرسة آدم سميث وكافة ذوي الاقتصاد الحر تقديس الملكية الخاصة والاستثمار ولو كان بشكل جنوني، وافتراضهم دائماً أن هذا الشكل هو الذي يؤدي إلى الرفاهية حتماً، وهو أمر يختلف مع التاريخ وأرض الواقع تماماً، فهناك دول فعلاً نهضت عن طريق هذا النظام، وهناك دول لا، وهناك أزمنة تطورت مع هذا النظام، وهناك أزمنة لا. لهذا فإن جماعة سميث ينظرون إلى الملكية الخاصة والاستثمار كمقولات ميتافيزيقية ثابتة لا تقبل النقد ولا تقبل التغيير حتى وإن أدى إلى نتائج كارثية، علينا أن نحافظ على هذه المقدسات التي لا تقبل المس! هكذا ينظر مدرسة سميث، وهو ما لا نريده. ولا نريد أن تعيش طبقة على حساب طبقة، ولا نريد أن يعيش الأقل على ظهر الأكثرية وتعيش الأكثرية في بؤس شديد من أجل خدمة مقولات كالملكية الخاصة وغيرها. نحن الذين نحدد إن كانت الملكية الخاصة مفيدة عن طريق المنافسة والتطور والاستثمار أم لا، نلغيها إذا كانت مضرة، ونبقي عليها إذا كانت مفيدة، ونحددها إذا اضطر الأمر للتحديد.

وكذا الأمر لدى الماركسية يُضحَّى بالشخص نفسه بحروب أهلية طويلة قد لا تثمر عن نتائج مباشرة، وقد تكون نتائجه حسب النظرية بعيدة جداً، وأيضاً يخدم الشخص مقولات مثل الشيوعية وصراع طبقي وما إلى ذلك. والذي نريد نحن الإنسانيين بالتحديد هو أن يتخلص الناس من مرض خدمة المقولات وأن يتفرغوا لخدمة أنفسهم وخدمة غيرهم، وخدمة الكائن المكون من لحم وعظم ودم المسمى بالإنسان.

أما مدرسة كينز، فإننا يجب أن ننظر إلى التاريخ لنحكم عليها، فإن الجمال المنطقي والتناسق ليس بالضرورة أن يكون مثمراً منطقياً، فإنه عندما تخلصت الدول الغربية عام 1975 منه، فإنه لابد أنهم وجدوا فيه ضرراً لا شك، مما سموه "الرفاهية المرهقة" التي قد تؤدي إلى تبعية البلاد للغير كالذين لهم في دول الخليج، أو تنتهي الميزانية وتولد أزمة. وكذلك النيوليبرالية التي تسببت في أزمة عام 2008.
والأزمات لا تعني عيباً في منظومة اقتصادية أو في منظومة سياسية، إنما قد تقع كحادث ليس بإرادة أحد، إنما المطلوب هو علاجه قدر الإمكان. والمطلوب هو رفاهية وتقدم وازدهار البشر، وليس خدمة مخطط أزلي ومقولات غير قابلة للتغيير.
ولهذا نريد أن ننزل الاقتصاد من السماء إلى الأرض، ومن المطلق إلى الوضع النسبي المخترع اختراعاً. وهذه النظرة لعلم الاقتصاد قد تحرر الذهن البشري من الكثير من الأوهام التي قد تسبب في الحروب أو الامتيازات والظلم. وفكرة السلام العالمي هي ثقافة في الأول وفي الآخر، ولن تتحقق ما لم يأخذ جميع الناس القيم الإنسانية كبديهية يجب أن تكون، وكحقيقة يجب أن تتقبل، وكحياة يجب أن تعاش، وكتربية يجب أن تُغرز. فالقيم الإنسانية هي بسيطة وبديهية وتخدم الجميع، ولا تحتاج إلى الكثير من الذكاء حتى يفهمها كل الناس، كالحق في الحياة والحق في الاعتقاد والحق في السلام. تماماً مثل ما غُرِسَت قيم العلم والتقنية والاختراع لدى جميع البشر، تماماً مثل ما غُرِسَت قيم عبادة المال في جميع الناس. ولكن قيم الإنسانية لا تزال فيها الكثير من الشكوك، فالكثير من الناس من يعتبرها طوباوية لا تتحقق على أرض الواقع، أو أحلاماً وردية رومانسية. ولكن الواقع والحقيقة هو أن الإنسانية أقل طريق فيه أذى وهلاك وألم لجميع الناس، وهو أفضل طريق للازدهار، لأن فيه تعاوناً مطلقاً وسعادة للجميع وإبداعاً جماعياً مما قد يعطي منفعة للجميع. وهذا الكلام سهل جداً وسهل الاستيعاب وبسيط الفهم، ولهذا يجب أن يعتنقه ويفهمه كل الناس دون إيديولوجيا وتحليل علمي عميق، لأن هذا غير مطلوب من الكل. بل الذي يجب أن يفهمه الجميع هو أن كل ما نفعله يجب أن يحقق غاية، هي خدمة النفس في الدرجة الأولى، أي أن يكون الشخص نفسه راضياً عن نفسه وسعيداً، ثم خدمة الآخرين بالدرجة الثانية، أي أن يكون من يحبهم ومن يشتركون معهم في الأرض والمصير سعداء وآمنين. وبهذه المبادئ البسيطة التي يجب أن ترسخ بجانب الحقيقة العلمية، أي المطلوب أن تكون عقيدة الإنسان علماً وإنسانية، وأن تكون أخلاق الإنسان إنسانية بحتة. فإنما يشتق من عقيدة الإنسان – كالفيزياء والكيمياء والرياضيات – العلوم الطبيعية والتقنيات والاختراع. وأخلاق الإنسان يشتق منها القانون والسياسة الدولية والاقتصاد. فإننا نرى أن الأخلاق جوهر كل العلوم الإنسانية، أي أخلاق الإنسانية والنفعية والإنسانية بالمعنى الشعبي من حيث المحبة والسلام والمساواة والعدالة. وعن طريق هذه المبادئ يجب أن نبني علم

القانون والسياسة والإدارة الدولية والاقتصاد، ثم وبحسب الظروف والإمكانيات

والزمان والمكان والعلوم الطبيعية، نوجد الطرق التي تحقق هذه الغاية الإنسانية من حيث العدالة والسعادة والمحبة والمساواة، ثم نطبقها على أرض الواقع. وبهذا نكون اختصرنا علوم السياسة وعلوم الاقتصاد بما نريد وما نحتاج، والأمر ليس بالأمر المعقد بل هو بالوضوح والكفاية والسهولة حتى يستوعبها كل إنسان، ويجب عليه أن يطبقها، لا لشيء سوى لأنه الشكل الأفضل بالطبع.

ضد الحرب ونحو السلام العالمي

كل فرد فينا ، أنا و أنت ، كل واحد ، يسعى إلى سعادته و اكتفاءه له و لمن أحب إن أحب ، فلا يحب أن يلحق به أي ضرر ، لا يريد أن يجوع ، أن يؤسر أو يعرض للضرب أو الإهانة أو الذعر أو المرض لاهو و لا أحباءه إن أحب ، تجنّباً لهذه الحوادث ،التي لا يريدها ابن آدم ، اخترع وسائل و طرق لتجنبها (عدالة ؛ علم ؛ قانون ؛ _ _ _ _ إلخ) و لتحصيل ما يريد من خلالها .

يفعل لإنسان كل شيء أي شيء لفعل ما يريد و يشتهي و هرباً مما لا يريد و يكره ، ابتداء من الأمور البسيطة (المنزل ؛ الطعام ؛ العشق ؛ _ _ _ _ إلخ) حتى المشاريع الضخمة المعقدة (كالاختراع التكنولوجي ، القانون ، السلطة ، ، الدولة ، المال ، _ _ _ إلخ) .

الحرب هي ببساطة استخدام القوة لتحصيل ما تريد .

إما على وجه إجمالي جماعي مثل احتلال بلد لأخذ ثرواته ، أو على وجه فردي مثل الجريمة و السلب و والإكراه و والإغتصاب .

و الحرب كما آراها على نوعين : الأول الحرب كونها وسيلة و هي تنتج عن الجوع أو تضارب مصالح أو غاية في السيطرة و الثراء و هذا النوع هو أسلوب حيواني متطور ، و النوع الثاني : الحرب كونها أيديولوجيا ، و هذا النوع رهيب لدرجة غير معقولة و بشكل غريب للغاية ، فهي تبدأ من تصورات حول العالم و السلوك أو لإصلاح و تغيير شيء ما ثم تصبح أفكاراً يُتمسك بها ثم دعوى و إعلام ثم جدالات كلامية و تحزّبات ثم حرباً بالسلاح و اليد و العنصرية و الشائعات حتى الكراهية و الحقد ثم الاختلاف الثقافي و السياسي الكبيرين ثم الحرب العالمية و الدمار الشامل ، و مع استخدام العلم و الفلسفة في هذه الوسائل ، يا عيني ، قد ننقرض قبل البكتيريا بكثير و نترك الكوكب للقطط و الكلاب !!!!!.

فأما النوع لأول ، وهو الحرب كونها وسيلة ، ((وهي الأصل في كل الحروب)) هي تضارب المصالح الاقتصادية وهي تبدأ من لأفراد بحيث أنّ ثراء أحد لأفراد يتعلق بفقر الآخر ، أو ربح أحدهما يتعلق بخسارة الآخر ، مما يخلق مجالاً رهيباً للمنافسة ، و قد تسبب نوعاً من الهيجان الجماعي و الكراهية و العنصرية تماماً مثل صراع لألمان و الفرنسيين على الإلزاس و اللورين التي كانت إحدى أسباب الحرب العالمية لأولى و امور كثيرة غيرها ، أو أزمة 1929 الاقتصادية المخيفة التي كانت إحدى الجذور التي كانت ثمارها بالتأكيد الحرب العالمية الثانية .

أو مثل صراع تركيا و اليونان على قبرص ، قارئي الكريم ، من دون طرح أمثلة ، جرّب و ضع قطّين جائعين بينهما صحن من اللحم صغير لا يكفي أحدهما حتى ، وانظر الصراع الذي ينشر بينهما ، ليس فقط الجوع ، بل تضارب الرغبات بشكل عام يسبب هذ النوع من الصراع .

المشكلة هو أنّ المواد محدودة و تحتاج إلى عمل لكي تصبح قابلة للإشباع و الاستعمال بجانب أنّ الإنسان يريدها بشدة و بنفس الوقت يملك كل فرد قوة يستطيع بها تدمير لآخر و بهذا تنشأ النزاعات و قس ذلك على المنظومات و الدول .

لذا نظر بعض مفكري القرنين التاسع عشر و العشرين إلى الحرب كشيء لا مفر منه بل و مقدّسة بعض الأحيان مثل ما عند نيتشه و ضرورية مثلما ما رأى ماركس خصوصاً بين الطبقات ، أو لدخول الناس إلى دين الحق مثلما يرى جماعة الجهاد الإسلامي ، على أي حال ، لنحلل الموضوع بشكل أكثر دقة لنفهم :

ستعتبر كل فرد أو جماعة أو هيئة تنظيمية أو دولة أو حلف باسم " الذات " السهولة ، و سنسمي كل من (لإشباع لاقتصادي ؛ السيطرة ، المجد ؛ _ _ _ _ إلخ) ب " الرغبة " كذلك السهولة ؛ و ستحدد العلاقة بين كل من الذات و الرغبة ، و سأسمي كل من (القوة العسكرية ، التقنية العلمية ، القوى البشرية ، القوة لاقتصادية ، الأحلاف ، الثروة الباطنية ، المال ، أي نوع من المقدّرات ؛ _ _ _ إلخ) ب " القوة " وسوف اسمي كلاً من (الأيديولوجية ؛ الإعلام ، الدين ، تكنيك و لأسلوب و الإقناع ، المكيدة و الخطط و الخيانة و التضحية و الدعم و السلم و السياسية العامة و الاتجاه السياسي و طريقة العمل الخارجية و الدبلوماسية و العسكرية _ _ _ إلخ) ب " الاسلوب " .

و هنا أستخدم طريقة الرياضيات حيث نضع للرموز معاني ثم نجد العلاقات بينها فنظفر بذلك نتائج لها تطبيقات في العالم الواقعي .

و الآن لنفرض وجود ذاتين لهما قوة ، يريدان نفس الرغبة ، و للحصول على نفس الرغبة يستخدمان أساليب هي بالطبع متعارضة متعاكسة و تبعد كل ذات لأخرى عن الرغبة نفسها و هذا التعاكس بالأساليب لإبعاد الآخر عن الرغبة نفسها هي ما ندعوها حرباً (و قد تكون حرباً ديمقراطية على الورق و قد تكون مشادة كلامية ؛ وقد _ _ _ إلخ أياً يكن) .

سنناقش لآن حالتين : الأولى هو أن تكونا - أي الذاتين - لهما قوى متقاربة ؛ و الثانية هو أن يكون لأحدهما قوة أكبر من الآخر بكثير .

لنبدأ من الأول : بالطبع ، بما أنّ الذاتين نفس القوة و كل منهما تستخدم أساليب

تعاكس أسلوب الآخر و تبعده عن الرغبة نفسها ، فإنهما لابد أن يعارض كل منهما أسلوب الآخر (اي بالعربي الفصيح تنازع !) و بما أنهما يتصارعا ، فستعمل كل منهما على إبعاد الآخر عن الرغبة كي يظفر بها ، و لابد لإبعاد الآخر عن الرغبة نفسها أن يضعف قوته بالقوة نفسها التي يمتلكها هو ، و ذلك لأنّ الآخر سيصل إلى الرغبة نفسها بقوته التي يمتلكها هو ، و لكن للآخر قوة أيضاً ، و بما أنّ القوى متعاكسة تبعد كل واحدة منهما لأخرى ، فإنهما سترتكزان على إضعاف بعضهما و ذلك كي لا يبعده عن رغبته المنشودة و كي لا يضعف لآخر قوته ، لأنه إذا ضعفت قوته سيبتعد عن الرغبة أكثر و هو مالا تريده كل من الذاتين .

لهذا تسعى كل من الذاتين لإفناء قوة الآخر لأنها عائق عن رغبتها ، و ذلك لتمنع عنها عبئ معارضة الاخرى (دافع هجومي) و لكي لا تتعرض للفناء (دافع دفاعي) .

إذاً فالنتيجة الطبيعية لذلك هو أن تحاول كل قوة إفناء الأخرى ، و تتعارض بأساليب يعيق لآخر لإضعافه ، و تكون النتيجة الطبيعية هي أن تضعف القوتان سوياً .

و قد يخسر ما هو أكثر من ربح الرغبة بكثير .

لنجرب أن نسقط هذا الكلام على الواقع :

قد تتحارب جماعتان على شيء ما ، و بهذا سينتشر الذعر و الهستيريا و الموت و القتل و التدمير للبنى التحتية و يعم الجوع و الفقر و الفاقة فلا يعود لكل جماعة سوى البلايا و الخوف و الموت و لأمراض النفسية و الجنون بكل أشكاله ، و قد نتأمل حادثتين كمثال على ذلك ، الأولى هي الحرب العالمية الأولى التي خلفت أعداد لا تحصى من البلايا التي ذكرناها سابقاً ، بدأت من صراع على مقاطعات و أحقاد تاريخية و بناء أمجاد و تقاسم المستعمرات الأفريقية و الأمريكية بين الدول ، و التي أثمرت أزمة 1929 الرهيبة سابقة الذكر ، التي سببت انهياراً رهيباً لكل اقتصاديات الدول الأوروبية بل العالم كله ، مما رفع البطالة إلى أعلى مستوياتها و مستوى الفقر إلى أعلى كذلك ، التي شردت عائلات بحالها و كثرت الميليشيات و الجرائم و مات الملايين بعدها ، مما أدى لانهيار كافة قطاعات و مؤسسات الدول ، و انهيارات نفسية و جسدية بين البشر و هذه البلايا التي وقعت على المجتمعات و الدول والتي سببت لهم خسارات كبيرة مالية و اقتصادية ، لا أتوقع أي دولة كانت ستجنيها بأخذ مستعمرة تقاتلوا عليها .

و العبرة الثانية التي نأخذها من التاريخ هي انهيار الحضارة الإسلامية و علومها و فنونها إلى ركود من غير رجعة ، إلى جهل و فقر و مخدرات و القذارة الجسدية و

الكسل و الخرافات بكل أشكالها .

لقد كانت الحضارة الإسلامية امتداداً من سمرقند حتى فرنسا و جنيف ، حضارة ظاهرة غنية و علمية في بداياتها متطورة ز متقدمة بالنسبة لزمنها ، فيها العلوم و الفنون و الرقي ، و لكن من أين جاء التخلف فجأة ؟؟!! كيف ؟!! أعتقد أنّ إجابة البروفسور غوستاف لوبون هي الصحيحة ، فإنّ طبيعة العرب (و الفرس و الأتراك) الحربية و حفاظهم على هذه العادة و حبهم للسطلة و العراك هي أحد لأسباب الرئيسية في الانهيار ، بالإضافة إلى قبضة الأصولية الدينية على كل فكر فلسفي و تنويري في الحضارة الإسلامية (ابتداء من تهافت الفلاسفة الغزالي و فتاوى ابن الصلاح و ابن تيمية فيهم و _ _ _ إلخ راجع مصائر الفلسفة بين الإسلام والمسيحية للدكتور جورج طرابيشي) ، لحروب المغول و حروب المماليك فيما بينهم و الفساد و البلطجة السياسية التي كانت في مصر المماليك و فارس المغول و العراك بين الأندلسيين على السلطة (خصوصاً بين أفراد بني الأحمر و أيام ملوك الطوائف) و الحروب بين القبائل في المغرب و الحروب بين الطوائف المختلفة في بغداد ايام بني بويه (خصوصاً بين السنة و الشيعة) و حروب القرامطة مع الخلافة العباسية و حروب السلاجقة مع الحشاشين و حرب المماليك مع سليم لأول و حرب هذا الأخير مع الصفويين _ _ _ إلخ .

كل تلك لانقلابات السياسية و المعارك ،جعلت الناس إما مسترقين أو محاربين ، و جعل الناس في قلق دائم من الفقر و استعداد دائم للحرب ، صارت أخلاقهم حربية بامتياز ، خنق عندئذ أي نوع من الفكر الحديث أو التعدد الفكري أو التعايش ، و صار بدلاً منه المكائد و الدسائس و الفتن السياسية و الطائفية و الفوضى الحربية و الديكتاتورية و نهب الكثير من الثروات من قبل الحكام ، ب لإضافة إلى لاستبداد و المكوس و التشدد الديني الذي خنق و قتل الفكر و الحرية ، و شلّ كل مكون للحرية و الفكر مما يجعل الناس عمال كالعبيد و فلاحين جائعين طائعين متعاطين للحشيش راضين بعيشتهم منتظرين الآخرة ، و كما ذكر لوبون ، فإنّ شلّ الحريات و لاستبداد الشديد ، يشل حركة لاقتصاد ، مما يجعله حاملاً راكداً و ميتاً، يجعل الناس كسالى يبحثون عن طعامهم و ممارسة الجنس فقط ، و هذا هو الذي سبب موت حضارة ظلت حية لمدة ثمان قرون ، و هي لآن ميتة و لا زالت تختصر بعد موتها ، و أغلقنا آخر صفحة من حضارة مزدهرة نشتاق لها .

ففي المحصل الحرب هي خسارة للطرفين ، و ضررها أكبر من نفعها بكثير ، و على حد تعبير رسل " علينا التعلم كيف نعيش سوياً لا كيف نموت سوياً .

أياً كانت الرغبة (مقاطعة ، نفط ، _ _ إلخ) فهي لا تعدو ربحاً بالنسبة للخسارة

البشرية و المالية و لاقتصادية التي تفقدها الجماعات ، و على مستوى فردي ، شعبي ، قد أفقد منزلي ، عملي ، أو أخي أو ابني أو أبي ، و قد يغتصب عرضي أو أرضي ، السوق يُقيَّد ، الأحكام العرفية تُنَفَّذ و قانون الطوارئ يعمم .

الاقتصاد ينهار و التقدم يصبح تراجعاً و هو ما رأيناه بأم أعيننا في سوريا اليوم و أمس ، حوالي 90 ٪ من الشعب السوري تحت خط الفقر ، عمل 12 ساعة في اليوم لا يكفي غذاء أسبوع بعد عمل شهر كامل .

هذا بجانب انهيار الصحة البدنية و النفسية ، و تفشي لأمراض و الفقر و البطالة .

ببساطة : الحرب وسيلة فاشلة تؤدي إلى نتائج كارثية لا يتمناها أحد .

إلا في حالات الضرورة ، و الحالات الشديدة التي تستلزم الحرب أو الموت ، نختار الحرب طبعاً ، تماماً مثلما قال بوتين " قبل خمسين عاماً ، علمتني شوارع لينينغراد شيئاً واحداً ، إذا كان الحرب لابد منها ، فبادر أنت بالهجوم " .

نعود إلى التحليل السابق : ما الحل إذن ؟؟! ، نجد أنّ الذاتين خاسرتان ، في الحرب و في السلم لابد أن يخسر أحدهما على لأقل ، في الحرب لم يبلغ أحدهما هدفه ، و رغبته لذا فالحرب ليست دائماً الوسيلة الناجحة ، هنا يجب البحث عن طريقة ترضي الطرفين و تحقق مصلحتهما سوياً .

و أما الحالة الثانية ، أن يكون أحد الطرفين أكثر قوة بكثير من لأخرى ، بحيث نهمل تأثير الصغيرة ، و نعتبر أن قوة الكبيرة لانهائية بالنسبة الكبيرة ، و هنا لا بد أن تحكم الكبيرة بالعدل أو تستبد بها ، الحالة الأولى لاتعتبر حرباً ، أما الثانية بما أنها تحمل طابع الديكتاتورية و القسوة ، نستطيع اعتبارها حرباً ، لذلك تكون قوة الصغيرة معدومة أو معاكسة الكبيرة لو على مستوى صغير قدر ما نشاء ، فإما أن لا تستفيد الكبيرة أو تكون لها عدو من الداخل .

وبالإسقاط الواقعي نجد :

هذا لاستبداد إما أن يقع على جماعة (أقليات) أو على أبناء الشعب كله .

فأما وقوع لاستبداد على الأقليات يشعرهم ذلك بالهامشية مما يؤدي للأحقاد و كراهية و نبذ نحو الأكثرية ، أي تهيئة لحرب طائفية و تقسيم .

إن أبناء الفئات الأقلية أكثر تعصُّبًا وتصلُّبًا من الأكثرية، أي هم بمثابة خلايا السرطان في الجسم، وبأي فرصة ستفتك الأقلية بالأكثرية، وهذا ما يسبب بلبلة وعدم استقرار في البلاد. وهذا ما رأيناه بأم أعيننا في سوريا، أو حتى الأقليات العرقية في تركيا وكندا. وهذا ليس بصالح أحد.

وأما أن يقع الاستبداد على الكل، فهذا فيه شلّ للحريات، وقتل للإبداع والرغبات، فيغدو أبناء الوطن كَسَالى مرهقين لا يفكرون إلا في طعامهم وشرابهم، وبهذا تصبح البلاد متخلفة. فالتقدم لا يكون إلا بالتعاون، فلنقل: أقوى وأذكى رجل في العالم، هل يستطيع صناعة هاتف من التراب؟ الجماعة نعم، أما الفرد فلا. فكيف ترهن حياة ملايين من الناس، وإدارة بلد بأكملها، بيد رجل؟ البلد إن لم يتقدَّم شعبها لن تترقى، وهذا ما نجده مفصَّلاً عند الكواكبي في "طبائع الاستبداد".

والآن، لنضع الكلام المجرد جانبا ولنتحدث بواقعية. لست أرى أحدًا من الناس العاديين من هو مستفيد من الحرب. فهذا يفقد بيته، وهذا يفقد صحته، وهذا يفقد عزيزًا عليه. هذا إذا وقفنا لوحةً ناظرين من الخارج إلى الطرفين المتحاربين، ماذا سترى؟ أو ماذا سنرى؟ مجانين يتقاتلون بشراسة. حسنًا، إذا أخذنا وجهة نظر أحد المتحاربين، سترى حتمًا مبررًا ما يجعله يحارب ويقاتل، والآخر هو المعتدي. وليس هناك من هو مستفيد، فقد دمَّار بدمار. في أي حرب تدخل بها دولة أو جماعة، ليس ثمَّة منتصر، بل كلاهما يخسر، ولكن الأقل خسارة والأكثر صمودًا هو من ندعوه "بالمنتصر". كل طرف سيستخدم كل قوته لتدمير الآخر، ولكل طرف مبرره الخاص، ولو كنت مكانه لحاربت مثله وأكثر منه ربما.

ولكن ليس للجندي أو المدني أو الإنسان العادي الصغير أي مبرر بتاتًا، كان مع هذا أو مع ذاك. هو ليس مستفيدًا بالمرة، بل يضع نفسه حطبًا لمدفأة السياسي. وهو – أي السياسي – يملك المال والسمعة والمجد، وأنت يا حسرة مجرد رقم في وثائق الدولة، وأداة صغيرة جدًا من جيش كبير لتمشية مصالح السياسي. إن الذي يتقصده السياسي، خاصة في الشرق، هو تعمية النتائج العملية بالشعارات، فيقول: أنا قومي أو إسلامي أو اشتراكي. أنت قل: جائع. سيقول: ثقافة وحضارة وخلافة ومجد. أنت قل: دمار وفقر وتعطير. لا توجد أي فائدة للحرب بين الجيوش الضخمة سوى تخريب حياة الناس وتدميرها.

تخيل أخي القارئ: رجلان في الثلاثينيات من أعمارهم نازلين ببعضهما ضربًا على لعبة "باربي". بالطبع سينعتهم الناس بالحمقى. إذاً، ما هي قيمة مجموعة مقطوعات صوتية: "ثقافة، اشتراكية، قومية، إسلامية" إلى آخره؟ لا وجود ملموس لها في الواقع، وأمم بحالها تتصارع على الألفاظ. بالطبع هذه قمة في الحماقة

أما التعاون ففيه خير للجميع، وثمار اقتصاديًا. في النهاية، وجود المجتمع والدولة ثمرة التعاون البشري، حتى يكون الكل سعيدًا، أو حتى يخدم المجتمع بعضه بعضًا، لا أن يكون شخص واحد هو السعيد وكل المجتمع يخدِمه. ليست الحرب سوى صيغة متطورة لنزعة العدوانية المتأصلة فينا، والتي كنا نحملها منذ الأجيال الأولى لبني جنسنا، حيث كنا عدوانيين ونتقاتل مع بعضنا من أجل البقاء.

أما اليوم، فبالتطور الكبير الذي وصلنا إليه، قُدِّم لنا عقد قد ضمن لنا البقاء وكل نعم العيش. وقد كنا نعيش في غابة أو مجتمعات قبلية عشائرية، فلسنا نعيش في قبائل اليوم ولا في غابة، بل تحكمنا دول مدنية. وإن كنا في الوطن العربي ما تزال بعض تلك الروائح والأنفاس الطائفية تفوح بيننا بين فترة وأخرى. فإذا كنا قد حصلنا على البقاء، فعلامَ نتقاتل؟ مثل صراع الحيوانات وقتالها مع بعضها مبررًا، فهي تسارع من أجل البقاء. ولكن نحن، على أي شيء نتقاتل ونشعل الحروب هنا وهناك؟ نصنع ونبتكر آلات للقتل وآلات للتدمير. لماذا كل هذا؟ متى سيسود السلام في هذا العالم؟ متى ستكف الأمم والدول عن الطمع والنهب والاستغلال؟ متى ستكف عن التسارع للسيطرة على العالم؟

إنما يشعل الحروب أسباب عديدة في العصر الحاضر، ولكن سأُخَصِّص أبرزها، وهي كالتالي:

· العقائد الدينية.

· الأطماع الدولية من دولة إلى مجموعة الدول.

· الثورات الشعبية على أنظمة فاسدة.

· احتلال أرض من قبل دول أخرى،

أما العقائد الدينية، فيجب أن نزيحها عن كاهلنا ونرتاح من عبء تراث قديم يرهقنا قرونًا طويلة، ولم يقدّم لنا أي شيء يذكر سوى الاقتتال والحروب والصراع على السلطة، وشلالات من الدماء تراق هنا وهناك. والحروب الدينية غبية وعبثية، كما أثبت لنا التاريخ، وترى ذلك بعينك في العصر الحاضر، ونراه كلنا بالطبع؛ لأنها تستند على أسس واهية وخرافات قديمة تجاوزتها العلوم الحديثة. فالبلدان التي تخلت عن تلك العقائد الدينية أصبحت أكثر ازدهارًا وتطورًا من البلدان التي لا تزال تستغيث بالدين وتخوض حروبًا دينية.

وأما الأطماح الدولية، فهي أحد أسباب الحروب، لكنها ليست دائمًا ناجحة في تحقيق أهدافها في الحرب. حين نعرف أن كل دولة لها من الموارد ما يكفي لحاجاتها وزيادة، حتى لو لم يوجد لها سياسة داخلية وخارجية ناجحة، وبخطط اقتصادية فعالة، تستطيع أغلب البلدان أن تغطي حاجاتها، وبدون دخول في حرب مع دول أخرى من أجل الأطماع، والتي في بعض الأحيان يرافقها عنف وحروب، ربما احتلال دول لدول أخرى، وما يترتب على ذلك. لهذا يجب علينا أن نعي خطورة الأطماع بما لدى الغير؛ لأنها لا تجلب سوى الحروب والدمار والخراب في أغلب الأحيان. لا يوجد منتصر، بالضبط كالخسائر التي دفعتها الولايات المتحدة عندما

غزت أفغانستان والعراق، والخسائر التي دفعها الاتحاد السوفيتي عندما غزا تشيكوسلوفاكيا.

على أي حال، أجد أن أهم الأسباب التي تؤدي إلى الحروب هي الثورات الشعبية ضد الأنظمة الاستبدادية الفاسدة الديكتاتورية. فالثورات إيجابية، وهي في هذه الحالة لها مطالب محقة كالحرية والعدالة والمساواة. ولكن إذا اختارت السلطات الاحتفاظ بالسلطة وقمع الشعب، فإن ذلك سوف يؤدي إلى حروب طاحنة بين السلطة والثوار، ربما يتطور الأمر إلى حرب أهلية، كما حصل لدينا في المجتمع السوري. وكما يقال: في الحروب الأهلية تتعدد الخسارات ولا يوجد فائز. عند النهاية نجد أن الحرب هي صيغة تؤدي للخراب والمعاناة، وتجلب معها شتى أنواع المآسي التي ترافق الأفراد والمجتمعات، وتردُّ الدول التي تحصل فيها الحروب عقودًا – بل بالاحتراز قرونًا – إلى الوراء.

ليست الحروب إلا صيغة تعكس أنانية وطمع الجنس البشري، أو عنفهم المفرط. فلم توجد حروب نبيلة في هذا العالم، وفي آخر قرنين لم نجد ولا حربًا نبيلة خاضتها البشر، حتى لو كان هدفها نبيلًا، فالقسوة والعنف واللارحمة التصق بتلك الحروب ليعكسا وجهًا بشعًا للإنسان والبشرية جمعاء.

من حق كل البشر – بغض النظر عن أعراقهم وأديانهم ومذاهبهم – العيش بسلام وأمان. ومن الغباء شن حروب من أجل تعصب قومي أو ديني. وليس من حق أي إنسان أن يفرض على الآخرين بقوة سلاحه شيئًا من عقيدته المعيبة، ويشن حربه على الآخرين من أجل سوء انتمائهم الديني أو القومي.

إن السلام – إن السلام بين البشر – يخلق وجهًا جميلاً لعقل وتفكير ورقي الإنسان والبشر، ويجعل العلم والرفاه يتقدمان في المجتمعات والأجيال، على عكس الحروب.

نعم، نحن ضد الحرب، وضد العنف، وضد القتل، وضد صيغ الحرب المختلفة؛ لأن أغلبها لغايات وأهداف ليست لصالح الإنسان أو لصالح البشر، وقَلَّما توجد حروب نبيلة تلتزم الأخلاق السامية في هذا العالم.

ماذا نفعل؟!

إن نسبة من يملكون المال والسلطة هم قلة جداً، بينما الغالبية من البشر لا يرضون الوضع الحالي للكرة الأرضية من حروب وقتل ومجاعة. القوة ليست في المال ولا في المنصب، لأن من جعل للمال قيمتهم هم البشر، فلو أن غالبية البشر اصطلحوا على تسمية المال "ورقاً" والذهب "معدناً رخيصاً ليرمى في الشوارع"، وكذلك

المناصب لو اصطلح الناس على تسمية الرئيس الفلاني والقائد الفلاني "رجلاً عادياً" لصار رجلاً عادياً. لذا فإن القوة تتركز في الغالبية من البشر، وتسعون بالمئة من الناس تعتمد على قرارات الأقلية من الناس وعلى اصطلاحات غير موجودة وغير حقيقية كالمال والوطن والقومية وإلى آخره. والمصيبة الأخرى هي أننا نركز الهدف على الوسيلة دون الغاية، نغالي في تقديس الوسيلة أيا كانت هذه الوسيلة: إسلام، اشتراكية، مسيحية، ليبرالية. المهم هو إسعاد نفسي وإسعاد كل الناس.
والغالبية ممن تعتمد قوى السياسيين عليهم يحبون العدل والسلام والحرية والثراء، لكن ما يمنعهم هي التنظيمات الاصطلاحية: القانون، الدولة، المال، التي وضعتها الأقلية وفرضتها على الأكثرية، وطاعتُها الأكثرية. حسناً، ماذا لو تعاونت الأكثرية من الناس على صناعة نظام مدني خاص بهم ومقاطعة السياسيين وأنظمتهم؟ أي تعاون التاجر والعالم والجندي والشخص العادي ورجل الدين والفنان لتشكيل نظام مثالي، وترك السياسيين في أنظمتهم فارغين؟ وهذا ما أسميه "الانقلاب المدني".
وذلك بالطبع يتم بتجاوز الفروق الدينية والقومية، فكل شخص يهمه السعادة. ونحن جميعاً بالرغم من اختلافنا نهدف لإسعاد أنفسنا وإسعاد الآخرين ممن نحب وممن لا نعرف. لطالما كان هدف الإنسان هي السعادتين: الفردية والجماعية، وهذه هي الغاية التي نادى بها جميع الأنبياء والمصلحين كبوذا ويسوع ومهافيرا ورسل وماركس ولوك ومانديلا والكواكبي. لذا اخترع الإنسان القومية والتدين والإيديولوجيات والعلم والفلسفة. السعادة هي الغاية، وأيا ما كان الطريق فنحن معه.
نحن كما نُشير بأصابعنا نحو الشمس وننسى الشمس وننتبه نحو الأصبع.
للاشتراكيين جهود عظيمة لمشروعهم، وللمسيحيين جهود رهيبة لكنيستهم، وللإسلاميين جهود كبيرة لأمتهم. حسناً، ماذا لو وُجِّدَت هذه الجهود لإسعاد الناس فكراً وعملاً، إعلاماً وتوعية، جهداً يدوياً وفكرياً ومادياً، نحو إيجاد تنظيم أكثر عدالة وسعادة، مثالياً، مع مقاطعة كل التنظيمات الفاسدة والسياسيين السيئين بشكل سلمي؟ لأن كل ثورة مسلحة فوضوية ينشأ عنها الإرهاب والفقر والدمار النفسي والاقتصادي، فينحّينا عن غايتنا التي هي السعادة. لذا على كل من فيه حس إنساني ومحبة عظيمة وعقل سليم أن يتحد مع ابن دينه وقوميته الحقيقية التي هي الإنسانية. أعني، كما أن للتنظيمات السياسية وحدة وتنظيم، نقاطعهم بشكل سلمي، ونشكل نحن المجتمعات المدنية وحدة عالمية وتنظيم سياسي وهذه الوحدة تجسدها رابطة الأخوة الإنسانيين، وذلك بناء على قوة الأكثرية من المجتمع البشري. عندئذ، هل يستطيع أولئك الفاسدون محاربتنا بالورق الذي سموه مالاً؟ أم بالمعدن الذي سموه ذهباً؟ أم بالألفاظ الصوتية (اهتزاز هوائي) الذي جعلوها معاني موضوعية كالوطن والطائفة والقومية والبرالية والاشتراكية؟ فالدولة هي فكرة وتنظيم فرضتها الحاجة، كما فرضها العلم والفلسفة. لذا سنعتبر الدولة شركة اجتماعية اقتصادية تحاول إيجاد

صيغ ووسائل لتحقيق الغاية التي تشبع رغبات وحاجات كل إنسان من بينهم أنا. ولو وجد الناس أن الحكومة الجديدة كريمة وتقدم خدمات ومشروعات أكثر نفعاً وفائدة، تلقائياً ستنجذب الأكثرية إليها. وعلى الكل أن يلاحظ أن الرغبة التي يريدها الأكثرية هي مكبوتة من أجل حماقة الأقلية. ولو تعاون جميع المدنيين والعسكريين بيد واحدة نحو غاية لا نحو وسيلة، وخلق وسيلة خاصة لها، عندئذ نبلغ الغاية.

ليس ما أقوله كلاماً خيالياً لاهوتياً بعيداً، ليس فيه وليس فيه أي أذى لأي أحد، بل كل ما في الأمر هو تعاون وسلام فقط. هو عزل السياسي الأحمق كما يعزل المجنون تماماً، فلا يهتم أحد لرأي المجنون وتفكيره وخياله ومشاريعه إلا اللهم بعض العياديين (الأطباء). وما أراه أن بعض السياسيين لا تختلف مشاريعهم عن خيالات المجانين، فاحتلال العالم وإخضاعه للسيف وسفك الدم والإعدام هي من مظاهر المرض العقلي كما أثبت المختصون ذلك. كفى للعلماء أن يكونوا خدماً لهؤلاء الحمقى، وكفى للفنانين ورجال الدين والعمال وباقي الشعب أن يفعلوا ما لا يريدوا كي يكسب الأقلية من الحمقى بعض الأرقام والألقاب. اليوم لا أحد يرضى الجوع والاضطهاد وعدم المساواة والذل، ولكنه واقع محتوم لأننا نحن من نخدمهم دون أن نشعر كلٌّ في مركزه. أما لو توجهت أنظارنا نحو تنظيمات سياسية اجتماعية إنسانية من صنعنا، بنفس المركز والخبرة، لكن نحو غاية هي إسعاد نفسي وإسعاد الآخرين. المهم، الشيء الذي يُضلِّل في العادة ولا يعترف به الشخص عادة هو أن المحبة طابع متأصل داخل كل فرد، وهذا ليس رومانسية روسو ولا خيال البسطامي، بل هو واقع: في المحبة سعادة وترويح للنفس، في المحبة فن، في المحبة منفعة اقتصادية، في المحبة وحدة للمجتمع، في المحبة عذالة (ربما صداقة أو مودة) بين الناس، في المحبة تعاون وقوة، والحب إرادي ومن اختيار الإنسان الحر. لذا فأفضل ما يُرَبَّى عليه الأفراد هي المحبة. فالمحبة تصنع المثاليات التي تخيلها الشعراء والفنانون. في المحبة علاقة الإنسان بالله. في المحبة تألف المجتمع والسلام والمنفعة باختيار حر، بجانب السعادة العظيمة. والحب هو وسيلة لكنه أفضل الوسائل، فالسعادة لا تكون كاملة إلا بالمحبة الكاملة، والمحبة تؤدي للخير، والخير يؤدي للسعادة. وليست السعادة هي المنفعة وليست اللذة. الناس اليوم موجهون عبادة المنفعة، سواء صرحوا بذلك أم لا. ولكن هذه العبادة بسبب شعورهم أن نبذ المنفعة يعني الجوع والذل وهروب الناس عنهم يعني الألم. باختصار، لذلك أصبحت المنفعة (اللذة) هي الغاية، بدل أن تكون الوسيلة. بسبب هذا الخوف يبحث الجميع عن النجاح وتجميع الأرقام، الأرقام التي هي فوق حاجاتهم ورفاهيتهم، تصبح هذه الأرقام بحد ذاتها غاية. ولكن المتعة الحقيقية هي تلك التي نجدها في الحب مع كائنات تنبض بالمشاعر وحقيقية. أسميها الإنسان: العدالة عن طيب خاطر، والسعادة وتحقيق الرغبات عن إدارة وعم إرادة، لا تصبح واقعية بشكل كامل إلا

بالمحبة، وهي ما يجب أن نزرعه ونربي عليه أبناءنا ونركز عليه بالعلاجات النفسية. ويجب على المحبة أن تكون الجيولوجيا (ربما الأساس أو المنهج) لكل شخص وفكره وعقيدته، ومنها نبلغه ما لم يحلم به آباؤنا.

الحرب المقبلة ليست بين ثقافتين ولا دينين ولا قوميتين ولا عرقين ولا أيدلوجيتين ،بل بين نزعتين: هي الإنسانية والنفعية الوجودية. وأسميها النفعية لأنها تهدف اللذة والمنفعة، والوجودية لأنها تهدف المصلحة الشخصية فقط، واعتبار كل ما في العالم أدوات لتحقيق الإمكانيات. في النهاية سيدرك الآخرون أن الحرب والعمل من أجل كلمات ومعتقدات هي سخافة مضيعة للوقت. لذا ستكون الثقافة والفكر والدين شخصيةً جداً، مثل الساعة التي في يدك سيدتي. سيتجه الناس عندئذ إما للاتجاه الأول، وهي النزعة الإنسانية التي تهدف للسعادة كغاية جماعية وفردية، وهي التي تسعى إليها كل الأنبياء والمصلحين والعظماء. والاتجاه الثاني هو المنفعة، والذي يهدف لخدمة الشخص على حساب حياة الآخرين. وما علينا من الآن سوى مناصرة الطرف الأول على الثاني، وذلك لسبب واحد فقط هو أن المنفعة تتولد عن الإنسانية وبشكل دائم وغريزي، وأما المنفعة لا يتولد عنها الإنسانية بل فقط الدمار والحرب والصراع والفساد. ولا أسمى الإنسانية ديناً كما فعل كونت وكليفورد، بل نزعة، لأنها تصلح لكل الإنسان أياً ما كان دينه وعرقه وفكره. فالإنسانية هي سلوك وشعور وعاطفة، وما الفكر إلا لخدمة هذا السلوك وهذه العاطفة. وهذه السعادة نسعى إليها، والمحبة من طبيعتنا. وهذا الطريق الذي رسمه لنا بوذا وكنفوشيوس ويسوع ولوك وماركس وروسو والكواكبي ومانديلا...إلخ، لابد أن نكمله ويصبح لنا هدفاً نحققه ونحارب سلمياً لأجله. وهذه القضية التي يجب أن نسعى إليها، وقد بدأنا كبشر تحقيق هذه الانتصارات. فالله هو الخير والشيطان هو الشر. وظهور الأمم المتحدة والثورة الاشتراكية والثورة الليبرالية وظهور الأديان والحب العذري وفلسفات الإنسانية والفنون الجميلة والمنظمات الحقوقية والقانون، كل هذه تعتبر انتصارات، علينا متابعتها ولا نترك محلاً للأشرار والفاسدين والنظريات السيئة التي تدعو إلى القتل والخراب والظلم أن تأخذ محلها في العقول. بل إننا نرى أن الإنسانية هي الأشد منطقية والتي تلامس القلوب والعواطف، والتي يجب أن تكون عليها السياسة الداخلية والخارجية والاقتصاد والأخلاق الفردية والجماعية. والهدف والغاية تختصر بالمحبة والسعادة، والعلم هو ثالثنا المقدس في رابطة الأخوة الإنسانيين.

الفهرس

المقدمة..... 1

نحو عقل تعددي 6

نحو هوية إنسانية 18

نحو المنهج العلمي..... 35

رحلة في تاريخ العلم وعن الفلسفة العلمية 39

نحو النفعية العلمية العالمية 61

نحو العدل الاقتصادي 71

ضد الحرب ونحو السلام العالمي 78